
ابراهيم الفاتح

ابراهيم الفاتح

بقلم

اللواء
عبد المنصف محمود باشا
المدير العام
لمصلحة خفر السواحل وحرس الجمارك والمصايد

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



حضرة صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول



ابرهيم الفاتح

كامل

مقدمة وتمهيد

ابراهيم الفاتح

لم يخل كتاب من كتب التاريخ التى تناولت نهضة مصر الحديثة على يد محمد على باشا الكبير ، من ذكر للبطل ابراهيم باشا ، ولده الاكبر ، بل كان له فيه نصيب كبير ، وحديث طويل ، يضفى عليه الثناء والفخار ، ويكلل هامته بالتعظيم والاكبار .

ولم يشذ أحد من المؤرخين عن تصويره بطلا ذا رأى سديد نفاذ ، ودراية وحنكة فى تصريف الأمور ، وإدارة دفة البلاد ، فوق أنه قائد بارز ، قيضه الله لرفع علم مصر فوق الأقطار الكثيرة التى غزاها وأخضعها .

وليس غريبا أن تروى عنه القصص والروايات ، وتؤلف فى سيرته الكتب والمسرحيات ، فقد تفنن الكاتبون فى

تصويره وسرد مواقعه ، إذ وجدوا فيه وفيها مادة خصبة يخرجونها فى شتى الألوان والأسفار ، كل بطريقته ، بقدر ما امتلأت نفسه من الاعجاب بالرجل ، والتمجيد لشأنه .

ولئن كان من حق الانصاف للرجل على مواطنيه ومعاصريه أن تتناوله أقـــلام من عاشروه ، أو عرفوه ، أو تتبعوا خطاه ، فان من الانصاف الأكبر أن تدرج السنون وتكر الأعوام ، وهو موضع الدراسة من كل أمة ، شرقية كانت أو غربية ، عامدين إلى دراسة مافعل ، أو ما كان له من مميزات ، وما كان فيه من حيوية ، وما تهيأ له من أسباب النصر ، وما كان له من خلق ، وكيف ساد ، وكيف غـــزا ، وكيف قاد ، وكيف برز ، وكيف انتصر ، وبأية حكمة تصرف ، وبأى عقل تدبر .

هكذا سيرة العظماء ، لدراستهـــا معنى ، وفى سردها مغزى ، للأجيال ، وللنشء ، وللقدوة ، وللحث ، بل فيها لذة أى لذة ، وما أحسن الانتصار ، وما أبهى المنتصر . .

وليس أحب إلى الناس من حديث الشجاعة ، وحديث البطولة ، وحديث الغزو ، وحديث الكر والفر . كان هذا شأن الرجال من قديم الزمن ، ولا تزال النفوس على

حالها فيه ، لم تتغير ولم تتبدل ، فهو ميراث يأخذه الخلف عن السلف .

وما أصدق تحقيقاً لما نقول ، بما يتحكم اليوم فى الأذهان والعقول . فما تقوّت أمة ، وما نهضت دولة ، إلا وشاءت أن تتكلم بلسان الحديد والنار ، بل ماوثب قطر ، واستطال شعب ، إلا باشعال نار الحماسة فى الأفراد والجماعات ، بالايحاء اليوم وتعليمهم أنهم نسل الابطال والغزاة الفاتحين . يتحسسون التاريخ ، ليجدوا تبريرا لما يقولون ، وتأييداً لما يرون ، وان بعد التاريخ فهم مقربوه ، وأن دفن فهم باعثوه .

ولسنا بالألى يتخلفون عن الركب ، أو يتنكبون السبيل إلى الأمجاد العزيزة القوية ، وما أسعدنا أن نتكلم فنفيض فى الحديث . إذ نروى عن أبطالنا الأماجد ، وارادهم من خيرة أبطالنا العظام ، بل أسد من أسودنا الكواسر ، كان بالأمس ملء الأسماع والنواظر ، وحديثا على فم الدنيا كلها .

وأعجب أن يكون قد غزا الأقطار القريبة منا ، ويكون له فى قلوب أهلها إلى اليوم ، ذكرى هى أجمل الذكرى ، بل حبه مكين ، واسمه له رنين . عنه يروون ، وإياه يتعشقون ، يرون فيه منقذهم من الظلم والاسترقاق ، انتصر فى بلادهم أيما

انتصار ، فلم يأخذه زهو ، ولم يدر بخـلده أن ينحو نحو الغزاة ، وإنما نحا نحوا جديداً . بسخاء كريم ، ونبل فذ وعدل وانصاف .

فلئن أحيينا اليوم ذكراه ، فانما نحي فيه أنفسنا ، ونشعل بيده مشعلا ينير لنا وجه التاريخ ، ويهدينا إلى عظمتنا التى ترقد تحت الثرى . نتحدث فنهز المشاعر ، ونجد خير نشوة ، وخير قدوة ، بل خير نخوة .

وإن كان فرد واحد قد حاز كل هـذا النصر والفخر ، والتأييد والتمجيد ، فلا ننسى أنه وهو يحرز هذا كله ، وينتزع الأمجاد بعد الأمجاد ، كان يقول عن جيشه ، وعن أبناء مصر أنه مدين لهم بما كتب له وسجل فى تاريخه .

فما أجدرنا أن نستقبل ذكرى وفاته خير استقبال ، لنشم أريج عظمة الرجال ، ونستنشق شذى هذا البطل ، بل سيد الأبطال . وقد أتاح لنا فى هذا الوقت بالذات ، وفى جهادنا القوى العنيف ، الظروف التى تشير اليه ، فتزكى لهيب الاقدام والجرأة والتضحية ، للوصول إلى ماوصل اليه ، وما ذلك الأمس ببعيد .

هذه الذكرى المحبوبة ، قد بارك الله بها شعب مصر ،

وأبناء مصر ، فهى وان بعثت إلى البطل بدعوات الترحم ، فقد بعثت إلى الشعب صورة شاهدة ناطقة ، يستعرضها إذا ماجاء هذا اليوم الذى صعدت فيه روح البطل إلى بارئها ، بعد أن عمّر ماعمّر ، ولقي مالقي ، من شدة وعناء ، ومن عزة ورخاء ، ثم تلقى درسه النهائى ، وعرف أن الموت فى سبيل المجد حياة ، وأن العمر وان طال فمصيره إلى الفناء ، والشجاعة والشهامة تطيل الأعمار وان قصرت ، وعلى النقيض فان الجبن وحب السلامة ، وان طالت بهما الأعمار ، فأمرهما قصير ، ومصيره أيضا الى الفناء المحتوم.

والحديث عن ابراهيم لايقتصر عليه ، فلن يستطيع مؤرخ أن يستلّه من بين معاصريه ، والمعتمدين عليه ، والذين تأثروا به واتكأوا على مجده ، والذين قدم لهم حسابه ، فأعلى شأنهم وأعلوا شأنه .

لهذا كان لزاما علينا أن نعرف كيف ربىّ ، وكيف ولد ، وكيف عاش ، ومتى بزغ نجمه ، وما هى قدراته المميزة ، وكيف اختار لنفسه الجندية ، وكيف أبى على نفسه إلا أن يتتلمذ وهو فاتح عظيم ، ويقبل على الخضوع للنظم

العسكرية الضيقة ، شأنه شأن عامة النـــاس ، ويأبى أن يعامل كأمير ، وكيف أصرّ على ذلك ، وأبى إلا أن يأخذ الأسباب من منابعها .

ولئن كان الغرب بأكمـــله قد فاخر بنابليون بونابرت ، وأحبه المؤرخون وطبقات الشعوب فى الدول المختلفة ، فقـد أجمعت شعوب الشرق والغرب ، فى نفس العصر ، على أن ابراهيم هو نابليون آخر عمل وبرّز ، فكان له من هذه الشعوب مثل ما نال بونابرت من تقدير وتمجيد واعزاز .

ومن أولى من مصر أن تزيح الستار عن عظمة هذا الرجل الذى أبان عظمتها ، ورفع علمها فى الخافقين ، وقاد شبابهـا وفلاحيهـا ، فى مصر وخارج مصر ، فى البر والبحر ، من نصر إلى نصر . بل أخرج منهم قوة سلّطت على العـــالم ، فكانت أقوى من النار والنور .

إن ذكرى ابراهيم البطل ، قد عرفها من قبلنا ، فأقاموا له تمثالا ناطقا شاخصا شاهدا ، فى ميـــدان فسيح ، يتوسط القاهرة ، وهو يمتطى صهوة جواده ، يشير ببنـانه إلى بلاد

الثورة ، شأنه وهو حى فى معاركه الظافرة الخالدة . وإنما قصدوا إلى تبيان عظمتهم فى عظمته ، وتذكير النشء ، كلما مروا بوسط القاهرة وأحسن أحيائها ، والاهابة بهم أن يقرأوا ويتعلموا ، ويسألوا من صاحب هذا التمثال ، ان كانوا لايعلمون ، ثم ينشأوا على حب الجندية ويتمنوا لو يكونون جنودا تحت قيادة ابراهيم أو فاتحين مثل ابراهيم ، ويكون لهم وعلى يديهم اعلاء شأو مصر ، وفتوحات مصر ، ورفع علم مصر فى الخافقين .

ومن العسير على كاتب أن يدلى بدلوه فى الدلاء فى حديث رجل بطل كابراهيم ، تناولت سيرته المؤرخون والكتاب منذ أن ولّى وقبل أن يولىّ ، وشهد له وهو حى سفراء الدول ومبعوثوها فى مكاتبات رسمية سرية ، لم يكن يحسب لها غير الطى حسبان ، فاذا مانشرت كان فيها العجب العاجب ، وكان فيها الشهادة البليغة ، وكان فيها الصراحة تجىء على أقلام هؤلاء المبعوثين إلى ملوكهم ورؤسائهم ، فيكون فيها اظهار للحقيقة الخفية ، وتنوير لبواطن الأمور .

يجتمع كل هذا فيتناوله التاريخ ، وكلما تقدمت الأيام ، وزادت الأحاديث والمؤلفات ، لم يجد الكاتب الجديد شيئا

جديداً يتصف به البطل الراحل ، ولكنه يقف مبهوتاً معجبا، مبتهجا مسرورا ، يرى تغلّب هذا الرجل على الأقدار ، واستبساله الصعب ، وانتقاله من الشرق إلى الغرب ، واكتساحه البلدان ، وقيادته شعبه إلى الانتصار فى أراض مجهولة ، وحبه لوطنه وإيثاره على غيره ، فيجد لهذا كله صدى عميقا فى نفسه ، يحفزه إلى الكتابة ، وهو انما يحاول الافضاء بما فى صدره ، واراحة ضميره ، ليقول كلمة حق ، تعبر عما وعى وما رأى وما حفظ ، وفى هذا لذة لاتعدلها لذة ؛ تريح البال ، وترفع عن الكاهل عبء مايحسه من رغبة الانصاف . على الرغم من أن كثرة ما كتب فى ابرهيم تضيق السبل على من شاء التأريخ لعهد هذا البطل الكبير . وانما لكل كاتب هدف ، وزاوية يتناول منها موضوعه ، وله أسلوبه فيما يعتبره تاريخا معبرا منصفا ، شأن الصورة تختلف وضعاً وأضواء وزوايا ، للشخص الواحد بعينه ؛ فتكاد تختلف الصور كلها وتتباين ؛ وكما تختلف أيضا باختلاف الاطار الذى يحفها ويضمها .

ومن الغريب والمدهش حقا أن تطالع تاريخ هذا البطل:

فتراه قد شرّع دستورا ، يتمثل الآن فى خاطرنا ، ونداب على تنفيذه والأخذ به ، وهو عماد تفكير هذا الجيل فى الأقطار المختلفة . أليس هو الذى دعا إلى « الجامعة العربية » منذ أكثر من مائة عام ؟

ومن أجمل المصادفات أن يجىء يوم ذكرى ابرهيم ، وتكون الجامعة العربية حقيقة واقعة ، يشد أزرها الفاروق ، وتعمل جاهدة لتحرير الشرق من الغرب ، ويقود جيش مصر سليل ابرهيم العظيم ، مليكنا الكريم ، فاروق الاول ، فيكلل الله أعماله بالنصر ، وتشيد البلاد بما يسدى اليها الفاروق فى كل يوم ويهدى ، وأن تكون مصر ذات سيادة كبرى ، مادية ومعنوية ، تتزعم الشرق ، وتبهر الغرب ، وتنادى فيستجيب لندائها الأقطار العربية والاسلامية ، تحقيقا لرغبات الفاروق يرون فيها سلاما لهم، وضمانا لأمجادهم ، فيهتدون بهديه ، ويأخذون برأيه ، ويرتضونه إماما وزعيما .

وإنه لنصر من الله ، وطالع سعيد ، أن تجىء ذكرى ابرهيم فى هذه الأيام ، والجيش المصرى يحارب فى ميادين

فلسطين ، لتحرير أرض العروبة ، فيقتحم المواقع ، وينزل بالعدو ضربات ساحقة ماحقة ، ويبهر العالم بقوته وبسالته .

وإننا لنحيي هذا الجيش القوى الباسل ، جيش الفاروق المظم ، ونحيي قواده البواسل ، الذين اختارهم الفاروق فأثبتوا جدارتهم بالثقة السامية الغالية ، وعلى رأسهم صاحب المعالى الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية والبحرية ، الرجل الذى رفع الأخلاق فأعلى عمادها ، وضرب المثل الشاهق فى الكفاية والقدرة والاحتمال ، وحسن القيادة والتوجيه والتدبير ، فاستحق ثقة الفاروق ، وتقديره السامى .

نصر الله جلالة الملك المعظم ، سليل ابرهيم الفاتح الكبير ، وحفيد محمد على المنشىء الأكبر ، ومحي النهضة المصرية والعربية ، الموفق إلى الأمجاد ، الساهر على نصرة النيل والعروبة ، رجل الساعة ، وواحد الجيل ، أيد الله ملكه ، ووفق سعيه ، وأعلى منارة مجده ، ان الله سميع مجيب .

عبد المنعم يوسف محمود

٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٨

الفصل الأول

البطـــــل

فى غض الاهاب ، لين العود ، ناشىء القوة ، يفد الى مصر فى ركاب أبيه ، فما يلبث فى رعاية مصر ، وبعناية أبيه ، أن ينمو ويذكو ، ويصير الحسام الباتر ، والبطل القاهر ، والجندى القادر الظافر .

قيضه الله لمصر حظاً سعيداً ، ونجماً طالعاً لامعا ، ليرفع علمها ، جيلا من الزمان (من سنة ١٨١٤ الى ١٨٤٠) ، فأعلاه فى الذرى ، وسيده على الأمصار والأقطار ، وكفل له النصر فى كل أوان ، وفى كل مكان ، وانتزع له المجد من أنياب الصعاب والعقبات .

فتح به جزيرة العرب ، وأنقذ به الحرمين ، ورفعه على الجزر اليونانية ، وارتفع به فى سماء اليونان ، وصعد به على

شواهق بلاد الصرب ، وثبّته عالياً على معالم إفريقيا ، وسما به فى أجواء الأناضول ، ونشره على أرز الشام ، بل شق به الطريق الى الآستانة ، ودق أبوابها دقاً ، فهز مشاعر أوربا هزاً عنيفا ، جعل مراجلها تغلى ، وقائمتها تقوم .

أرأيت الى رجل واحد يقف فى وجه الدنيا ، فتتساقط أقطارها بين يديه قطراً قطراً ، تذعن له ، وتستسلم إليه ، وتخضع لقوته القاهرة ، وهو كالسيل المنهمر ، لا تقوى على صده قوة ، ولا تقف فى سبيله عقبة .

ثم أرأيت الدنيا كلها تجتمع لتقف فى وجه رجل واحد ، الا أن يكون كفاء لهذه الدنيا كلها ، بل قل انها تخشاه ولا تلقاه إلا مجتمعة ، حذراً وخوفا .

أرأيت إلى الأعداء الألدّاء من الدول الكبرى ، تتناسى خصوماتها وعداواتها ، وتدفن أحقادها وثاراتها ، وتتحد وتتضافر وتتماسك ، لتوقف هجمات غاز واحد ، وفاتح فرد الا أن يكون خطراً داهماً عليها جميعاً ، لا تقوى عليه واحدة بمفردها ، وسيلا هاطلا يوشك أن يكتسحها ، فلا يبقى لها سيادة ولا سلطانا .

من يكون هذا الرجل الفرد ؟ وعلى أى جيش يعتمد ؟

أو يكون غير ابرهيم ، أبرهيم مصر الفاتح ، وجيشـــه هو الجيش المصرى العتيد .

كان قائداً شاباً ناشئاً ، لجيش ناشىء حديث ؛ يحاربه قواد محنكون بجيوش متمرنة متعددة الوسـائل ؛ ويحاربونه متكـتلين متكاتفين ، لأنهم يعرفون من هو هذا القائد المظفر .

ان لم يكونوا قد عرفوه من فتوحاته المتلاحقة المتتابعة ، ومن نجاحه الخارق الفذ حيث فشلت القوى المدربة العتيدة ، فقد طالما عرفوه من تقارير مبعوثيهم وعمالهم فى مصر ، وهى شهادات إن أقرت بفضل ، فان الفضل يكون أكثر مما تقرّ به ، وهى بعد مكاتبات سرية ، لم يكن يحسب أصحابها أن تعرف وتنشر على الملأ فى يوم من الأيام .

يتحدث « ميست » القنصـل الانجليزى إلى حكومتـه فى تقرير سرى بعثه إليها فى ٨ مارس سنة ١٨١٦ فيقـول عن ابراهيم « أسد الأبطال ، سديد الفكـرة ، لا يضلّ له رأى » .

أرأيت شهاده أقوى من هذه الشهادة ؟

أبراهيم هذا ، الذى بهر أبصار الأوربيين ، فصوّروه بطلا مهابا ، بل خطراً داهماً ، هو نفسه ابراهيم الذى يبعث إسمه الأمن فى قلوب قومه ورعيته ،وينشر السلام والاطمئنان فى ربوع الأقطار التى غزاها وفتحها .

كان يجوس خلال الشام متنكراً ، ليتفقد أحوال الناس ونظام الأمن ، فالتقى برجل من الباعة ، يحمل بضاعته ليطوف بها على القرى ، فيبيعها للفلاحين ، بالمقايضة عليها بالدجاج والبيض وغيره .

وكان الرجل يعبر صحراء الشام فى طريقه إلى قرية « جوبر » بعيداً عن العمران، ولما مر به ابراهيم تحدث إليه والرجل لا يعرفه ، ثم سأله : « أو لم تخش على نفسك من السير وحيداً فى هذه البرية ؟ ألم تحسب للصوص وقطاع الطرق حسابا، وانى أراك بغير سلاح ؟»

فأجابه الرجل على الفور : « كيف نخاف وأبو خليل فى البلاد ؟ ... »

هذا هو ابرهيم ، ابرهيم المهاب فى حربه ، المرهوب فى سلمه ، الصارم البتار ، الذى يرتجف منه العدو ، ويأمن به

الخائف ، وتعتز به الديار .

بل يعتز به أبوه نفسه ، ويعرف له قـــدره وأثره ، ويعترف بقدرته على جلائل الأمور ، وبعد نظره فى التقدير والتدبير . فنرى محمـــد على نفسه فى أوج مجده ، وهو الذى أسس ملكا وبنى امبراطورية ، يؤثر ولده على نفسه ، ويثق به ثقة لا حد لها ، ويعلن هذا جهرة أمام ممثلى الدول .

فتراه يقول لقنصل فرنسا فى إحدى المناسبات الكبيرة : « أليس ابراهيم هو ابنى العزيز ، فاذا رضى بشىء ، رضيت أنا به ، وإذا رأيت إمضاءه على وثيقة أيا كان شأنها ، أضع إمضائى الى جانب إمضائه دون تردد !! »

بل لقد بلغ من تقدير محمد على لابراهيم أنه لما عادمن حرب الوهابيين ظافراً منصورا ، ودخل القاهرة دخول الغزاة الفاتحين ، والشعب متحمس لاستقباله ، مبتهج بفوزه وانتصاره ، توارى محمد على عن الأنظار خلف نافذة فى أحد المساجد ، يرى منها ابراهيم فى موكبه ، دون أن يراه الجمهور المحتفل ، فما كان لأحد أن يشاركه المجد فى ذلك اليوم العظيم .

أى رجل فى الدنيا اجتمع له تقدير الأهل والأصدقاء والأعداء على السواء ، ودانت له الطبيعة البشرية نفسها ، وهى طالما جنحت الى الاقلال من شأن الكفايات الممتازة ، فأرخت له عنانهـــا ، وجمعت فى يديه من الأمجاد العظيمة الشاهقة ، مادية ومعنوية ، ما لا يكاد يرقى العقل الى التفكير فى أن تجتمع .

أهى وراثة ؟ أخذها عن أبيه البطل الكبير ، الذى أسس الملك الواسع الشامخ ، وفرض شخصيته على عصره ، وأوجب مهابته واجلاله على أنداده ، وعلى أضداده ، ورفع قدره وقدر بلاده فوق هام الجميع .

أهى موهبة طبيعية ؟ جاد بها الزمن والزمن شحيح مقل ، لا يأتى بمثلها إلا لماما ، ولا يبعثها إلا بقدر ، تكمن فى صميم الأيام ، حتى يبزغ نجمها فيمن اختاره الله أهلا لها ، فيختصه بها .

أهى جماع خصائص البيئة ؟ تتفاعل وتتكيف ، ويجذب بعضها بأطراف بعض ، حتى تستوى وتتركز ؛ فتكون قوة

دافعة مندفعة ، تفجأ العالم فى صورة العبقرى ، الذى ليس له ضريب ، والذى حاز الخصائص كلها ، تجسمت فيه بشراً سويا.

قد تكون شخصية ابراهيم انبعثت من مجموع هذه العوامل، أو من بعضها متحداً ، أو من أحدها على انفراد ، وإذا كنا لا ندرى ذلك على وجه التحقيق ، فاننا نعرف عن يقين لا يرقى اليه الشك أنه قد اجتمع له منها ما يكفل له البطولة والتفوق والخلود .

فلقد كان ابراهيم الابن الأكبر لمحمد على ؛ ومحمد على الذى ساس شعوبا بأسرها ، وربى أمما ، وخلقها خلقاً جديدا وبعثها إلى المجد وإلى العظمة ليس غريباً أن يكون قد تكفل إبنه ، وإبنه البكر بالرعاية والعناية ، والتوجيه الصحيح القوى والحفز والخلق والانشاء . بل ليس غريباً أن يرث ابراهيم عن والده مصدر هذه العظمة ، وهذه القدرة ، وهذا التوثب .

وولد ابراهيم لمحمد على ، وهو بعد فى دور التكوين والنشأة والاستعداد المقدور للمجد المرتقب ، فتفتحت عينا الولد على أبيه ، وهو يمارس الفروسية ، ويصارع الأبطال ، وينازل

ألقى الجامحة ، ويغلب الفراعنة العتاة ؛ وتكفيه هذه الصور القوية المهيبة ، لتبعث في قلبه الناشيء ، وعقله المتفتح ، وروحه النابض الناهض ، بحفز أي حفز ، ونزوع أي نزوع ، يتوثب الى الاقتداء والاحتذاء .

وجاء مصر يافعاً ، تملأه أحلام الصبا وآمال الشباب فرأى مولد الدولة التي انتزعها أبوه من أنياب الزمن ، وبعث روحها القديمة القوية ، وحرك فيها الخصائص القادرة القاهرة التي خلفها الفراعنة والعرب ، وسار بها في طريق المجد بخطوات ثابتة واسعة ، فكان له من هذه الأمة العريقة ، ومن هذا القائد القدير ، درس واسع الأفق ، رن له في نفسه صدى عالي الجرس ، بعيد المدى ، عميق الأثر .

ورأى كيف أسس والده هذه الدولة ، وكيف جابه الناس والحوادث ؛ تصارعه الملمات حيناً ويصارعها أحياناً ؛ يكافح الدسائس والفتن ؛ ويعاني العقليات الملتوية المغرضة ؛ ويشق طريقه بين الأشواك الى المجد والى النصر .

هذه هي الوراثة ، ولها أثرها وفعلها ، وهذه هي

البيئة ، ولها حكمها وخطرها ، وهذه هى التجاريب ، ولها منطقها ورجمها . فهل نستطيع أن نجزم أى هؤلاء كان له الأثر الأكبر . وهل نستطيع أن نستبعد العامل الرابع ، عامل الموهبة الطبيعية ، وهى لاتخضع لمنطق ولا لسلطان .

لقد كان لنا أن نستطيع كل هذا أو بعضه ، لو أن تحت أيدينا الكثير عن حياة ابراهيم الخاصة . ولكن البطل ، وقد طغت بطولته على كل شيء ، لم يترك حاضره الباهر مجالا للحديث عن تفصيل نشأته ، فانزوى هذا الماضى الجميل عن أعين المؤرخين ، وأفسح المجال لحديث البطولة والمجد .

على أننا نستقرىء الحوادث القليلةالتى وقعت تحت أيدينا ، فلا تلبث أن تنبىء عن الكثيرالجليل . تنبىء عن النفس العالية التى لم تنشأ من العدم ، ولم تنبعث هكذا دفعة واحدة من غير صلة وثيقة بالماضى القوى المكين .

يقص علينا التاريخ أنه لما رأى محمد على أن مطامعه ومطامح بلاده ، والرفعة التى يرتقبها وينشدها ، تقتضيه أن يواجه الحروب الحديثة ، بأنظمة عسكرية حديثة ، فانه فى

حرب الحجاز وفى فتوح السودان ، كان يحارب قوما على فطرة الحرب ، حاربهم كما حارب المماليك على الطريقة الشرقية ، أما وقد ارتفعت سمعته الحربية ، وأصبح مقدورا عليه أن يواجه جيوشا منظمة مدربة ، بمثل أنظمتها وبمثل أساليبها ، فليس لمثله أن يرضى إلا بالتجديد ، وأن يلبس لكل حالة لبوسها .

فقرر أن يدخل النظم الحربية الحديثة على جيشه الناشىء ليخلق منه جيلا كفئا للمواقع المرتقبة فى الأيام المقبلة ، ويرمى به الأمم والأقطار ، فتدين له وتخضع .

واستخدم لهذه التنشئة الجديدة المنظمة ، الكولونيل «سيف» (سليمان باشا الفرنساوى فيما بعد) ، واستهل هذا التنظيم الغريب على الأمة بتعليم عدد قليل من الشبان ، لكى يكونوا ضباط الجيش المرموق .

وقدّم إلى الكولونيل سيف أربعمائة من مماليكه الأقوياء الأصحاء ، واقتدى به كبار المصريين فقدموا عددا من مماليكهم فبلغ عدد هذه النواة الناشئة ألفا من الشباب القوى السليم .

.. الا أن هذا النظام الجديد المفاجىء كان موضـــع تذمر الضباط القدامى ، ورأوا فيه بارقة تنذر بإغفالهم واهمال شأنهم ، وهم الذين صحبوا طوسون وابرهيم إلى بلاد العرب، وليس يتفق مع كرامتهم ومكانتهم فى البلاد أن يبادروا إلى الانخراط فى سلك المدرســـة الجديدة ، ليشاطروا فى البناء الجديد ، الذى يرقبه محمد على ويرعاه ، ويعلق عليـــه الآمال العريضة .

ولكن ابرهيم الموهوب ، ترفعه عظمته النفسية عن الشعور بالنقص أو التوجس من الخفض ، وتدفع به عزيمته الشماء إلى التزيد من المران والتدريب ، وإلى الأخذ بأسباب كل تعليم سليم ، والاستعداد كل الاستعداد لملاقاة الكماة والأبطال فى ميادينهم ، وبمثل استعدادهم ووسائلهم .

فقرر ابرهيم أن ينتظم فى الفرقة التى يدربها « سيف » كفرد عادى من أفرادها لا امتياز له ولا استعلاء ، حتى ينال التعليم الصحيح من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلقى درسا عمليا منتجا على هؤلاء الضباط القدامى الذين كان لهم رأى لايساير الحضارة الجديدة .

وشق ذلك على «سيف» فى بادىء الأمر ، ورأى ان ابن الوالى وساعده الأيمن يوشك ان يكون سببا فى هدم النظم العسكرية ، وقد يتسبب عن الاحتكاك به أن يزرع العداوة والشحناء بينه وبين ولىّ النعم ، فحاول جاهدا أن يثنيه عن عزمه ، ويرده عن فكرته ، فثبت له ابرهيم صادقا مخلصا .

ورأى «سيف» آخر الأمر أن لامناص من قبول هذا الشاب المصمم ، فقال له : « أما وهذه رغبتك ، فلن أقف فى سبيلها بطبيعة الحال . ولكن يجب أن تعلم أنك إذا لم تخضع لأوامرى الخضوع كله ، طيلة مدة التعليم ، فان ذلك يسىء إلى النظام وإلى الجندية أعظم اساءة .

فهل صمد ابن الباشا لخشونة الجندية ، وصلابة النظام العسكرى التعليمى ، ورضى عن تنفيذ أوامر المدرب ، دون تذمر أو نفور ؟

يروى لنا التاريخ أن «سيف» كان يفتش الفرقة ذات يوم ، وكان ابرهيم واقفا فى الصف الأول مع أنه كان أقصر الجنود قامة ، فأخذه «سيف» من يده الى الصف الذى تلائمه قامته ،

فامتثل ابرهيم ، ولم ينبس ببنت شفة .

لايظنن أحد ان ابرهيم كان فى ذلك الوقت طفلا أو شابا صغيرا ، يخضع للأوامر والقيود بطبيعة سنه ، أو يجبر عليها بأمر والده . لقد كان ابرهيم إذ ذاك «أمير الحرمين الشريفين ووالى الحبشة» ، بل كان قد عاد ظافرا منصورا من حملته على الحجاز ، ودخل القاهرة دخول الغزاة الفاتحين ، الذى أشرنا اليه فى مستهل هذا الحديث .

ولكنها النفس العالية ، والتربية الصحيحة ، والروح القوية التى بعثها محمد على ، وكونتها البيئة الصالحة ، وركزتها الحوادث والتجاريب ، ثم هى بعد أثر من موهبة طبيعية يجود بها الدهر ، تنميها عوامل الحفز والانشاء والتكوين ، فتعمل على طلب الكمال من أجل الكمال وحده .

على ان الموهبة الطبيعية الباهرة ، تبدو بصورة قوية نفاذة فى ذكائه وسعة حيلته وسرعة بديهته وبراعة تدبيره ، ويبدو هذا كله أبهى مايبدو فى الصورة الساذجة البسيطة ، التى لاتحتاج إلى علم ودراية ، ولم تسبقها تجارب من نوعها ، يهتدى بها أو يقاس عليها .

ولسنا نجد أقوى من رواية بسيطة يتناقلها التاريخ ، وهى انطق بالمغزى . وأبين فى الجلاء والايضاح ، واقدر على الاستشفاف والاكتناه ، من أحاديث مواقع ابرهيم وملاحمه ، وعوامل ظفره وانتصاره .

يروى أنه لما عزم محمد على ، على استئناف النضال فى بلاد الوهابيين ، بعد وفاة ابنه طوسون ، وانتقاض الأعداء على المدنة التى أبرمها معهم ، تكاثر القواد ورجال الحكم ، كل يرغب ان يكون على رأس الجيش الذاهب للغزو ، وكل يرجو أن يكون له حظ الاختيار .

فجمع محمد على قواده ورجال الحكم والسلطة ، وأمر ببسط احدى الطنافس الكبيرة فى بهو الدار، ووضع فى وسطها تفاحة، وقال ان الذى يتناول هذه التفاحة بيده ويقدمها إلى الوالى دون أن يطأ السجادة أو تلمسها قدمه ، يوليه قيادة الحملة .

وحار الحاضرون ازاء هذا الأمر المعجز ، وتطاولوا إلى التفاحة دون جدوى ، حتى جاء دور ابرهيم ، وكان قصير القامة ، وليس لمثله أمل فيما عجز عنه الطوال الكبار ، بل

لعل الحضور انصرفوا عن النظر ، فما عاد إلى التفاحة سبيل .

ولكن ابرهيم تقدم فى هدوء ، فتناول السجادة بيده وأخذ يطوى طرفها شيئا فشيئا ، وبطبيعة الحال لم تلمسها قدمه ، إلى أن وصل إلى التفاحة ، فتناولها وقدمها إلى أبيه ، بين دهشة المتبارين . وكانت له قيادة الجيش، دون منازع .

هذه نفس ابرهيم العالية ، وهـــذا ذكاؤه وسعة حيلته . وتكمل الصورة أو تقرب من الكمال اذ نتحدث عن طرف من قوة شخصيته ، والمغناطيسية الحيوية ، الكامنـــة فيه فتجعله فذا فى مواهبه الخاصة ، قادراً على تملك أزمة النـــاس والاستيلاء على حبهم وتقديرهم .

بعث المستر « سولت » القنصل الانجليزى فى ذلك العهد الى حكومته كتابا ، ينوه بمقدرة ابرهيم على كسب قلوب رجاله ، ودال على ذلك بما حدث لأحدهم وهو حسن أغا ، وكان ابرهيم قد أقامه حارسا على حدود الحجاز ، فوقع حسن أغا يوما فى شرك منصوب ، وكان له سبيل الى الفرار والنجاة ، ولكنه بدلا من أن يفكر فى الفرار ، انطلق بجواده الى حيث

كان الموت المحقق، وشاطر رجاله مصيرهم المحتوم، وآثر الموت على أن لايواجه الى ابرهيم حيا وقد فر هاربا من ساحة القتال.

ونجد «سولت» هذا نفسه يكتب الى حكومته فى ٢٨ ابريل سنة ١٨١٧ فيقول : «ان الطريقة التى يدير بها ابرهيم قبائل متعددة ومختلفة من البـــدو العرب ، مكفول لهـــا النصر المحقق».

هل يكون هذا كله لغير واحد فى جيـــل ؟ أو يتأتى الا لبطل ابن بطل، موهوب ابن موهوب ؟

ولد ابراهيم فى قوله سنة ١٧٨٩ من زوجة محمد على الأولى ، الحبيبة الى نفسه ، وقد أنجبت له كريمة توفيت فى الصغر ، ثم رزق منها ابرهيم باشا فطوسون باشا فاسماعيل باشا فنازلى هانم . أما سائر انجاله فرزقهم من زوجات غيرها .

فابرهيم ولده البكر من زوجته الأولى ،وقد جاء ومحمد على فى شرخ شبابه ، اذ كان فى العشرين من عمره ، فلا غرو

أن كان له بعد ذلك ابنا وصـــديقا، وأن تقوم بينهما روح أقرب الى الزمالة منها الى البنوة الصرفة .

وقد تولى ابراهيم حكم مصر السفلى ولم يبلغ العشرين من عمره ، ليتمكن والده من السفر إلى الحجاز ، اطمئنانا من أبيه على قدرته وكفاءته ، فأظهر من الحنكة والدراية ماسجله التـــاريخ مضربا للمثل .

وبعد حادث مصرع المماليك فى القلعة ، تعقب ابراهـــيم المماليك الضاربين فى الوجه القبلى وأجهز عليهم ، وكان عددهم يقرب من ٨٠٠ كما جاء فى كتاب « ميست » قنصل انجلترا فى مصر بتاريخ ٦ مايو سنة ١٨١٣ إلى حكومته . وبهـذا النصر القوى استطاع محمد على أن يقول إنه قد استراح من المماليك إلى الأبد .

وكانت سنه لاتتجاوز السادسة والعشرين ربيعا ، عند ما اختير لقيادة الحملة على الحجاز وحقق الانتصارات الباهرة التى كانت قاصمة فاصلة .

كان قصير القامة ، قوى البنية ، نشيطا غاية النشاط ،

له قدرة خارقة على تحمل متاعب الحرب ، وتجنب دوافع اللهو واللذات ، وكان أزرق العينين ، عالى الجبـــين ، ذا لحية شقراء .

وكان مشبوب القوة الذهنية والبدنية مليئا بالشجاعة المقترنة بسداد الرأى وبعد النظر ، وحذا حذو أبيه فى حبّ البحث فى المسائل بنفسه ، دون اكتفاء بما تقدم اليه من تقارير .

ولم يلبث محمد على أن أولاه ثقته فصار ذراعه الأيمن ، وموضع ثقته التى لاحدّ لها ؛ يبرم مايشير بابرامه ، ويرفض مايرى رفضه .

من ذلك أنه لما عرضت فرنسا على محمد على فى سنة ١٨٢٩ أن تشترك معه فى فتح طرابلس وتونس والجزائر ، وافق محمد على، على أن يتولى هذه الحملة وحده ، بشروط طلبها من حكومة فرنسا .

وطال الأخذ والرد بعد ذلك حول شروط محمـد على ، وفى آخر الأمر عادالمندوبون من فرنسـا بشروط جـديدة ، وكان محمد على فى القاهرة ، فبعث بابرهيم إلى الاسكندرية ليتفاوض مع هؤلاء المبعوثين .

وكان قنصل فرنسا فى ألقاهرة يومئذ ، فقابل محمد على ، ولم يكتمه أن تكليف ابراهيم باشا السفر إلى الاسكندرية سيؤخر المفاوضات ، وعرض أن يحضر المندوبون إلى القاهرة ليفاوضوا الباشا رأسا ، فأجابه محمد على على الفور فى لهجة قاطعة : « ان لابرهيم باشا الحرية التامة فى أن يعمل مايريد ، وان هذه الجملة من شأنه ، فاذا قبل اقتراحات الحكومة الفرنسية وقال نعم ، فانى أقول نعم » .

ولما رفض ابرهيم مقترحات فرنسا ، رفضها محمد على دون تردد .

وكان ابرهيم على مجده وعزته ، وعلى مؤاخاة والده له يوقر والده كل التوقير كأصغر فرد فى رعيته ، إذا أقبل على الوالى لثم يده ، ولا يجلس فى حضرته إلا إذا سمح له بالجلوس .

وكان محمد على يقابل ذلك بمثله ، فيولى ابرهيم قدراً ومكانة . وابرهيم بصفته أمير الحرمين الشريفين كان له المقام الأول بين أمراء الدولة العثمانية ، فيتقدم عليهم جميعا ، والمفروض

عليهم إذا أقبل أمير الحرمين الشريفين أن ينهضوا إجلالا له ، فكان محمد على إذا أقبل ابرهيم عليه انتظر دخوله واقفا ، اجلالا له وتعظيما لرتبته ، ويأذن له بالسير معه فى الحفلات والتشريفات الرسمية ، سائرا قبالته على صف واحد .

وبعد فلنرجع البصر كرتين :

مصر تفتح الحجاز ظافرة منصورة
مصر تتأهب لغزو جديد
مصر تستخلص النيل فتحا وغزوا
مصر تهزم اليونان وتستولى على المورة
مصر تتجه إلى الشام بجيشها الظافر
مصر تواجه تركيا
الجيش المصرى يدق أبواب الاستانة

هذا هو ابرهيم فى تلاحق أمجاده العسكرية ، وانتصاراته الحربية ، وفيما رفع لوطنه من ذكر ، وسجله على الأيام من تاريخ خالد قوى مبين .

ومع ذلك فهذا البطل الموصول الظفر ، العالى الهمة ، البعيد الشأو ، قد دمعت عيناه فى يوم من الأيام :

وذلك لما أخذت أساطيل الدول المتحالفة المتكتلة ضده أسطوله بنيرانها من كل جانب ، وهو راس فى فرضة نافارين . فقد وقف ابرهيم ، البطل القاهر والفاتح العظيم ، ينظر إلى أسطوله ، الذى كان ثانى أساطيل البحر المتوسط ، يحترق بلا انذار ولا وعيد ، فدمعت عيناه ، ولم يفه إلا بكلمة وجهها إلى أحد رفاقه الضباط الفرنسيين : « أتشترك فرنسا فى تحطيم الأسطول الذى بناه مهندسوها ؟ »

الفصل الثانى

أبو الابطال

رحم الله ابرهيم أغا، وطيب ثراه

رحم الله الرجل الذى لم ينصفه التاريخ ، ولا يكاد يذكره إلا لماما ، وفى تضاعيف حديثه عن الأبطال. لقد كان له فضل ، وفضل كبير على التاريخ ، وعلى مصر ، وعلى النهضة المصرية الحديثة ، التى نتابع اليوم خطوها ، ونكمل بناءها ، ونعلى ما بنت وشيّدت .

ابرهيم أغا ، هو والد محمد على باشا الكبير . بل هو أساس الأسرة العلوية الكريمة وخير من أنجب .

كان قائداً لفصيلة من الجنود فى خدمة والى قولة ، وكان

موضع تقدير هذا الوالى وحبه وثقته ، وكان مشتهرا بقوة الشكيمة ، والحزم والرجولة .

ولد له محمد على فى سنة ١٧٦٩ ، فى دار صغيرة بأحد الشوارع القديمة المهجورة بميناء قولة ؛ وكانت ثغراً صغيرا من ثغور ألبانيا ، يحيط به سور .

وما كانت تدرى هذه الدار الصغيرة ، وهذا الشارع المهجور ، وهذه الميناء المتواضعة أنها سوف يذاع لها صيت ، وسوف يحج لها الركب ، وكيف يصفها المؤرخون ، وما يخبئه لها القدر مما لم يكن فى الحسبان ؛ وأنها فى الغد سيخلد اسمها ورسمها وتطغى على غيرها من الشوارع الواسعة المأهولة بالقصور والدور ؛ بل سوف تعلن عن اسم البقعة التى تضمها ، بل المدينة بأسرها .

وسواء أكان ابرهيم أغا قد انحدر من سلالة تركية ، أو من سلالة فارسية ، أو من صميم ألبانيا ؛ فما اتفق المؤرخون على رأى قاطع فى ذلك ؛ وما عرفه التاريخ بأصله وحسبه ونسبه ، وانما عرفه ويعرفه بأثره وتأثيره .

ولد له محمد على ، فرباه تربية عملية تكاد تكون عسكرية ؛ كلها

خشونة وتقويم . فكان هذا الصبي الصغير تقدم له الأطعمة فى أوقات معينة لا تتعداها ، ويقسر على لبس ما يختار له من الملابس ، وعلى أداء الصلاة فى أوقاتها .

وما كاد يدرج الصغير فى سنيه الباكرة الاولى ، حتى درب على ركوب الخيل ، وحمل السلاح ، حتى أنه وهو بعد فى طور الصبا خرج فى صحبة الدوريات المكلفة بمطاردة العصابات ، أو بتحصيل الخراج .

ومن ثم تعلم القواعد الأولية للحرب ، وفن مباغتة العدو ، وأساليب القيادة ، وحسن التقدير والتدبير ، كما كانت الخشونة التى صاحبت نشأته لها أكبر الأثر فيما جبل عليه من التواضع والقوة والصبر والاحتمال ، وقصارى القول فقد تخرج فى بيت أبيه ، وعلى يد أبيه ، بل مدرسة أبيه .

هذه هى نشأة محمد على الاولى ، وهذا هو فضل ابرهيم أغا ، ولم نبالغ فى أنه فضل كبير على حياة محمد على ، وعلى أمجاده العظيمة ، وعلى نهضة مصر التى سار بها محمد على إلى العظمة وإلى المجد .

فان صاحب هذه النشأة الخشنة القوية ، وقد ربى على أن يعرك الزمن ويعركه الزمن منذ نعومة أظفاره ، كان حتما له المجد والعظمة والخلود . وهكذا يكون أثر البيئة وأثر البيت فى إعداد النشء وإخراج الرجال ، بما عرفوه ولقنوه ومارسوه وتعلموه ، فالرجل صنو أبيه .

فهل كان يتخيل ابرهيم أغا أن هـــذه التنشئة ستكون أساساً لهذا المجد ؟

أغلب الظن أن الرجل ، وقد رأى أنه فقير وان يترك لولده ذخيرة ثمينة من الجاه والغنى ، أبى إلا أن يخلف له كنزاً من الرجولة الحقة ، والخشونة التى يستطيع أن يواجه بها أحداث الحياة ، فلا تغلبه ولا تصرعه .

وأصدقت الأيام ظنه بأكثر مما كان ينتظر ، فقد توفى وولده محمد على ما زال حدثاً ناشئاً ، ولم يخلف له ما يسند به ظهره فى ميدان الحياة المادية ، فكفله عمه طوسون أغا فترة من الزمن ، ثم توفى عنه .

وقد قلنا إن ابراهيم أغا كان موضع ثقة الوالى ، معروفاً

لديه بالإخلاص والصدق ، فكان هذا باعثاً له على أن يولى ولده عنايته ، ويشمله برعايته ومحبته . وما كاد محمد على يبلغ سن الثامنة عشرة حتى كان قد نال ثقة الوالى بدوره ، بفضل شجاعته وهمته وعزيمته التى ورثها عن أبيه ، والتى أنشأه عليها هذا الأب العظيم ، فزوجه الوالى بسيدة شابة أرمل من قريباته ، فكانت لمحمد على نعم الزوجة .وبهذا ربطت المصاهرة بين الوالى ومحمد على .

واشتغل محمد على بتجارة الدخان ، ولكنه لم ينقطع عن ممارسة الرياضة ، والتدرب على الفروسية ، واستكمال أسباب القوة والعافية ، وفى هذا يقول هو نفسه : « كنت أصوم أياماً بأكملها لأروض جسمى وأعوده الجوع ، وأمسك عن النوم ليالى طويلة ، لأبث فى نفسى روح التجلد والصبر على الجهد والعناء » .

وكان ينازل إخوانه فى الحركات والتمرينات الرياضية ، ولا يتوقف إلا بعد أن يسلم الجميع بأنهم تعبوا وأنهم لا يستطيعون المضى فى المباراة . ودعاهم يوما الى امتحان قوتهم

فى الجذف من الشاطىء إلى جزيرة صغيرة عينها لهم ، فما كادوا يبتعدون عن الشاطىء قليلا حتى هب اعصار شديد ، فعجز الجميع عن الاستمرار فى الجذف ، وقنعوا بالإياب ، إلا هو فإنه ظل يجذف بقوة ونشاط ، إلى أن بلغ الجزيرة . ومنذ ذلك اليوم ارتضوه لهم زعيما . وهكذا كان محمد على منذ الصبا ذا عزم لا يتقهقر وإذا رغب لا ينثنى .

يقول محمد على فى ذلك : « ولما أدركت الجزيرة وجدت جلد يدى قد تسلخ ، ولكنى كنت مصمما على تحقيق أمنيتى مهما يشتد ألمى . وبهذه الطريقة مضيت فى تنمية قواى البدنية والعقلية ، الى أن سنحت لى الفرصة بعد ذلك فى دائرة عمل أكبر وأوسع ، لأبرهن على شجاعتى فى حوادث كثيرة حدثت فى قريتنا » .

ولما كان فى التاسعة عشرة من عمره ، كان القرصان اليونانيون قد اشتد عبثهم بالمناطق القريبة من قولة ، فكلف محمد على القيام على رأس قوة من الجند للقضاء على هذا العبث وفى ذلك يقول : « أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أشتهى

خيراً من ذلك . فما كاد الأمر يصدر الى بالشروع فى مهمتى حتى خرجت حالا للبحث عن القرصان . فهدانى حسن الحظ الى مقرهم ، وبعد أن تعقبتهم مدة قصيرة وفقت الى اعتقالهم بسفينتهم وهم أحياء ، فكوفئت على ذلك بأن عينت ضابطاً فى الأسطول العثمانى ، برتبة اليوزباشى » .

وبلغ محمد على ذات يوم أن سكان إحدى القرى التابعة لمركز قولة امتنعوا عن دفع الضرائب وتمردوا ، وأن رجال الحكومة يلقون صعوبة فى حملهم على احترام القوانين ، والخضوع لها ، فذهب إلى الحاكم وعرض عليه خدماته ، وتعهد بقدرته على إعادة المتمردين إلى رشدهم ؛ فتردد هذا أولا ، ولكن ثقته السابقة بابرهيم أغا وما خبره فى محمد على وما أداه فى حادث سفن القراصنة ، جعله يجيب محمد على إلى طلبه ، فوضع بعض رجاله تحت تصرفه ، وأطلق يده فى العمل ، وهو يعلم أن الأمر جد خطير .

وما كاد محمد على يحصل على السلطة التى طلبها ، ويرى أن سمعته ومصيره بين شقى الرحى ، حتى أعدّ للأمر

عدّته ، ورسم له خطته ، فرأى أن يستخدم المباغتة والحيلة مع هؤلاء العصاة الأشداء .

فأسرع برجاله قبل أن يصل نبأ مهمته إلى المتمردين ، لئلا ينازلوه فى بقعة هم أعلم منه بمسالكها ودروبها ، ولكى لايفلت زعماؤهم ورجالهم إلى مكان حصين ، تاركين الشيوخ وحدهم فى القرى ولذا تذرّع بالحيطة التامة ، واستعان بالكتمان الشديد ، حتى لاتتسرب خططه لغير رجاله .

وعندما تهيأ له أن يضرب الضربة الأولى ، دخل لجأة إلى قرية من القرى التى شقت عصا الطاعة ، واتجه رأسا إلى مسجدها وعكف على الصلاة . وفى نفس الوقت أرسل بعض رجاله يدعون أربعة من كبار سراة القرية بدعوى أنه يريد محادثتهم فى أمر هام : فجازت عليهم الحيلة ، ولم يفطنوا إلى الكمين ، فقدموا اليه .

ولما وصلوا إلى قرب المسجد أمر بالقبض عليهم ، وكبلهم بالحديد ، وساقهم أمامه إلى قولة . فهاج الأهالى لذلك وماجوا ، وبدوأ يهددون ويتوعدون ، فالتفت اليهم

محمد على وقال إنه سيعدم الأسرى الأربعة فى الحال إذا مسوه أو مسوا أحد رجاله بسوء ، وأعلن أنه لايطلق سراح الأسرى إلا إذا دفع سكان القرية الأموال المطلوبة منهم ، فلم يروا مندوحة عن دفعها ، وتعهدوا بأن لايمتنعوا فى المستقبل عن تأدية ماعليهم للحكومة .

واغتبط الوالى بالنتيجة التى أسفرت عنها مناورة محمدعلى ، وازداد اعجابا بشجاعته وذكائه وسعة حيلته ، فعينه مساعداً لقائد الحرس فى قصره ، وبعد حين توفى القائد فأحله محله .

فهل ياترى كانت روح ابرهيم أغا ترقب هذه التطورات فى حياة محمد على ، فتشعر بأنها أسست لهذا ومهدت ، وبذت له وهيأت ، وسلحت محمد على بما يؤهله لهـــذه الانتصارات ، ولهذا المركز العظيم ، والثقة الكبيرة ؟

ألا ان المجد الذى كان مايزال يرتقبه فى ضمير الغيب ، أكبر وأعظم مما تخيله ابرهيم أغا ، أو تخيله محمد على ، ولو تنبأ أحد المنجمين بما سيتحقق لمحمد على ، لرماه الناس حتما بالجنون ، وما صدقوه .

ظل محمد على فى خدمة والى قولة ، ينال المزيد من ثقته ومن عطفه ومن رضاه ، وتتفتح أعـــين أولاده ، وعلى رأسهم ابرهيم باشا ، فيرون والدهم رمزا للفروسيـة والذكاء والرجولة وصدق العزم .

إلى أن حدث أن خشيت الدولة عاقبة تقدم الفرنسيين فى مصر ، وقررت أن تهـاجمهم وتدفع عاديتهم عن بـلادها ، فبدأت تعد الجيش الذى ترسله لهذا الغرض ، وصدر الأمر إلى كل منطقة بأن تقدم عددا من الرجال ، لتكوين هـــذا الجيش وتموينه .

وتعيّن على بلدة قولة أن تقدم فصيـلة مؤلفة من ٣٠٠ مقاتل بسلاحها وعددها ، يجهزها الوالى ، وأراد أن يبالغ فى فى إظهار ولائه للسلطان ، فعيّن نجله على أغا قائدا للفصيلة ، واختار محمد على مساعدا له ومستشارا .

وقدما إلى مصر فى سنة ١٨٠١ ، وسرعان ما أحس على أغا فى قرارة نفسه أنه ليس رجل الميـدان . ولا يأنس من نفسه

ميلا إلى الجندية ، فتخلى لمحمد على عن قيادة القوة ، وكفاه انه ابن الوالى . وهكذا الدنيا ، فالبقاء دائما الأصلح .

وكانت هـــذه احدى امتحانات القـــدر وحسناته ، أعطت القوس باريها ، وفتحت السبيل لمحمد على الى ماهو أكبر وأعظم ، بل إلى إمبراطورية واسعة النطاق ، عريضة الأفق ، إلى ملك مصر .

يقول محمد على فى أحد أحاديثه للقنصل الانجليزى «باركر» :
«وقد تركت بلدى شابا ، ولكن قومى كانوا يستشيروننى فى كل أمر . وأتيت الى هذه البلاد ، وأنا فقـير ، لا أملك شروى نقير ، ومع ذلك فعند ما كنت برتبة البكباشى جاء مورد الخيام ليعطى لكل بكباشى خيمة ، وكانوا كلهم أقـدم منى ويحق لهم التقدم على ، ولكن مورد الخيـــام قال لهم : تنحوا كلكم لأن هذا الشاب محمد على مقدم عليكم . فأعطانى خيمتى أولا . وارتقيت بمعونة الله إلى أن بلغت هذا المقام.»

قال هذا وانتصب فى مجلسه ، ونظر من نافذة إلى جانبه تطلّ على بحيرة مريوط ، وقال : «نعم بلغت هـــذا المقام ، وليس لى معلم» .

هذه شخصية محمد علي ، وتأثيرها في نفوس الناس والمحيطين به والمتعاملين معه ، يؤثرونه على من هم أرقى منه لغير ماسبب يعرفونه إلا أن هذا محمد علي ، يجب أن يتقدم الناس ويفضل عليهم . والله يعز من يشاء

لم يكن محمد علي من أبناء مصر ، ولا ممن لهم فيها عصبية أو جاه أو نفوذ ، ولم يكن مبعوثاً من تركيا ليحل محلا عليا ، ولم يدر بخلد أحد من ذوي الأمر ، يوم جاء إلى مصر ، أنه سيكون واليا عليها ، أو ذا شأن عظيم فيها ، فقد كانت الشقة بين مكانته والمكانة التي وصل اليها لايرقى اليها بشر إلا بمعجزة ، أو كان ممن توفرت لهم أسباب العلا وتهيأت له صفات ومواهب لم تتح لغيره .

فما رأى فرصته السانحة في مصر حتى رسم لنفسه خطة جديدة خفيت على غيره ، ووضع برنامجا يتبعه باحكام ، بعد دراسة وترو واتزان .

فتقرّب من الشعب ، واعتمد على العلماء وصفوة البلاد ، ولم ينحز لقومه الفاتحين ، إذ رآهم قد فارقوا الصواب ، وابتعدوا عن السداد والرشاد . فلا عجب ان رأيناه يتقلد

ولاية مصر بإرادة زعماء الشعب ، ونزولاً على رأيهم ، فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ .

ولكن هذه البيعة من الشعب لم تكن خالية من الشوائب فقد أحاطت الدسائس بمحمد على ، واشتعلت نيران الحسد والغيرة ، وقامت قائمة المماليك وزعمائهم ، وحيكت المؤامرات من بطانة الباب العالى .

فزعيم المماليك محمد بيك الألفى ، تعضده السياسة الانجليزية ، يعمل لابعاده واقتلاعه من البلاد . والانجليز بعمالهم لايتوانون عن السعى لدى الباب العالى فى اسناد حكم مصر إلى الألفى ؛ فهو صنيعة مأمونة مضمونة لديهم ، يمدونه بالمال والسلاح ، ليحارب الوالى الجديد ، بل الوالى الغريب .

وتركيا لاتستقر على رأى فى سياستها نحو مصر أو محمد على ، فكان ولاة الأمور ، الحاسدون له ، والناقمون عليه ، يخلقون له الصعاب والمشكلات ، لأن توليته كانت وليدة ارادة الشعب المصرى ، ولا فضل لتركيا فيها ، وهذا فى نظرهم حدث جليل وخطير .

فانظر كيف كانت همة محمد على وقوة بأسه ، ومبلغ ذكائه وتدبيره للأمور ، بل ابتكاره فى تكييف الظروف وخلق النظم ، دون سابقة يترسمها .

وأنى لأمثال المماليك وزعمائهم ، ورسل الانجليز وامداداتهم ، أن ينالوا من محمد على الذى ماتقلد الولاية الا بعد أن حسب لكل صغيرة وكبيرة حسابها ، فما استهان بأمل ، ولا خدعه زعم ، ولا غرّه نجاح . فلما جد الجد ، وشن عليه المماليك الحرب ، هزمهم فى القاهرة ، ودحرهم بالجيزة ، واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١٨٠٥ .

عندئذ شعر الإنجليز والأتراك على السواء أن محمد على ذو دهاء وذكاء ، قلما ينازعه فيهما وال أو حاكم .

بل لقد قال قبطان باشا (١) وهو يغادر مصر فى طريقه الى الآستانة ، بعد هزيمة المماليك فى الجيزة ، وهو يدلى برأيه فيمن أحق بالتأييد : محمد على ، أو زعيم المماليك :—

«انى لأترك فى مصر رجلا ستجده الدولة يوما من أعظم

---

(١) عبد الله رامز باشا .

خصومها شأنا وأكبرهم خطرا ، ولم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته » .

ولقد صحت هذه النبوءة بحذافيرها ، كأنما كان صاحبها يقرأ فى صفحة الغيب .

كان نصره على الالفى ذا أثر بالغ فى توطيد مركزه فى الولاية على مصر ؛ رغم أن الأتراك والانجليز على السواء كانوا يترقبون بفارغ الصبر هزيمة محمد على ، ليحقق كل من وراء ذلك مأربا له .

وعزّ على انجلترا أن تضيع عليها الفرصة ، بل ويتقوى خصمها ويتوطد ، وهالها الأمر ؛ فأتبعت دسائسها بسعى جديد يضع محمد على أمام الأمر الواقع ، وجعلت سعيها مباشرا ومركزا فى تركيا ، فانتهزت فرصة انتصار الأسطول الانجليزى على الأسطول الفرنسى فى موقعة الطرف الأغر فى ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥ ؛ واستطاعت فى قوة الغالب ، ووعيد المنتصر ، أن تقنع الباب العالى بأن فى عزل محمد على نفعا له ، وأبدت أنه لايميل الى الإذعان لاوامر الحكومة التركية ، ولم يسدد

الخراج لها كما كان يفعل الولاة السابقون من قبل .
وصادفت هذه الدسائس هوى فى أفئدة ولاة الأمور الحاقدين ، فصدر الفرمان الشاهانى بتولية موسى باشا والياً على مصر ، وتقليد محمد على ولاية سلانيك ، وبهذا يكون قد تم إبعاده ، وتحققت أغراض الإنجليز .

ولضمان تنفيذ هذا الفرمان ، وحمل محمد على على الخضوع والامتثال ، أرسلت الحكومة التركية الوالى الجديد موسى باشا على ظهر إحدى البوارج ، تصحبها مظاهرة بحرية قوامها ثلاث بوارج أخريات ، وفرقاطتين ، وسفينتين وعلى هذا الأسطول جنود يبلغ عددهم ٣٠٠٠ .

وكان الإنجليز قد أعلنوا الألفى بنجاح مسعاهم ، وقرب عودته إلى تولى أمر مصر ، فجمع رجاله وفلول جيشه ، وتأهب للفرص السانحة .

لكن محمد على كان يعرف ما يحيط به ، وما يبيت له ، فرأى أن يعالج الأمور بالحكمة والسياسة والدهاء . ولما أعلن بالأمر أظهر الارتياح والرضاء والامتثال ؛ ولكنه

تأهب سراً للمقاومة ، ومواجهة الحالة بعاملى السياسة والقوة .

فأبلغ ولاة الأمور فى المابين أن الجند يعارضون فى رحيله قبل أن يستلموا مرتباتهم ، وقدرها عشرون ألف كيس ، أى مائة ألف جنيه ، وكانت ذريعة احتج بهـــا ليكسب الوقت ، ويوقف الحكومة التركية أمام معضلة شديدة الوطأة عليها.

وكان العلماء ، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، لا يرغبون عنه بديلا ، فوقعوا العرائض باتفاقهم مع محمد على ، بأنهم قد اختاروه وبايعوه ، وولاه السلطان بفرمان ، فى تغييره اليـــوم استهتار بالفرمانات الشاهانية ، واستهانة بكرامة الأمة المصرية .

إذن ضمن محمد على الشعب والعلماء ، فعليه أيضا أن يضمن الجيش . فراح يعلن الجنود بأنه إذا إرتحل ، فلن يقبضوا ما لهم من مرتبات متأخرة . أما إذا أولوه ثقتهم ، وأخلصوا له ، وأعدّوا أنفسهم للقتال من أجل بقائه واليا على مصر ، فانه موفيهم أجورهم ، ومقدر لهم اخلاصهم ، مطمئن إلى ولائهم .

وبينما محمد على يعمل على تحصين نفسه بالجنود ، وبقوة

الشعب ، كان يتفق مع المماليك الذين رابهم أمر الألفى باختصاص نفسه بالعمل مع الإنجليز دون إطـــلاعهم على ما يجريه ، فاستطاع محمد على أن يحول قلوبهم إليه .

ولم يغفل أن يبذل المال والهدايا لكبار الولاة الأتراك وعلى رأسهم قبطان باشا الذى أرسل العرائض للآستانة برأى يسترعى النظر .

وبذلك ضمن محمد على لنفسه أعواناً فى مصر ومساعدين فى تركيا ؛ ولم ينس الناحية الدولية ؛ فقد كانت سياسة سفير فرنسا فى الآستانة تعضد محمد على ، وتتحين الفرصة لمساعدته .

وبينما هو يحارب الألفى ، وينتصر عليه فى دمنهور ، جاء رد حكومة الآستانة ، يطلق يد القبطان صالح باشا فى الأمر ، يتصرف على ما يرى فيه الصالح .

وكان هذا نصراً عظيما لمحمد على ، إذ إتفق صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية ، على أن يؤدى إلى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس ، وأن يجعل من ولده ابراهيم (بيك وقتئذ) رهينة بالآستانة على هذا المبلغ .

وما أن استتب الأمر لمحمد على ، وقص أجنحة المماليك ، حتى واجهته إنجلترا بأن جردت على مصر فى سنة ١٨٠٧ حملة لاحتلالها ، وتحقيق مطامع الإنجليز فيها .

فانتهزت بريطانيا فرصة توتر العلاقات بينها وبين تركيا ، لانحياز الأتراك إلى جانب فرنسا : فاتفقت مع روسيا على النيل من تركيا ، وأعلنت عليهـــا الحرب ، وأرسلت أسطولها فدخل بوغاز الدردنيل ؛ وفى الوقت نفسه تضرب تركيا ومحمد على فى مصر ، فتصيب عصفورين فى وقت واحد .

ولكن الشعب المصرى اليقظ ، وروح العزة القومية المسيطرة والنهضة الجديدة المتوثبة ، جعلت هذا الشعب العظيم يتحفز لمقاتـــلة الإنجليز ، الذين قدموا فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ بأسطول قوامه خمس وعشرون سفينة حربية ، عليها ٦٠٠٠ مقاتل .

وتواطأ محافظ الإسكندرية أمين أغا مع الإنجليز ، وسلمهم المدينة ، بعد أن اشتروه بالمال ، وسار الإنجليز فى طريقهم الى رشيد ، وكانوا قد رسموا الخطة للمماليك الضالعين معهم ، الزحف على القاهرة واحتلالها ، حتى تشيع الحروب فى البلاد ، فيسقط

في يد محمد على .

ولكن محمد على يرمقه الله تعالى بعنايته ، جزاء كفايته وهمته ، ويلهمه الصبر ، ولا يفارقه تفكيره ورأيه ، فيقابل هذه الأنباء رابط الجأش ، فوار الهمة ، عازماً على العمل فى غير توان ، فالوقت ثمين .

فهادن المماليك فى الصعيد ، وقبل شروطهم ، وتخلى لهم عن الوجه القبلى حتى الجيزة .

وكان الإنجليز واثقين من النصر ، إزاء هذه الظروف القاسية المريرة التى لا يطيق حملها البشر ، ولا حاقت برجل إلا ولان واستكان ، وخضع وسلم .

ولكن عناية الله لم تفارق محمد على . فقد قام الشعب المصرى يزود عن مصر متطوعاً ، ويؤيد محمد على بوسائل القتال الشعبية ، فهزم الإنجليز فى رشيد هزيمة منكرة ، قبل أن يعود محمد على من الصعيد لمقاتلتهم .

فلما وصل محمد على ، وعلم بما حصل ، تنبأ بأن الإنجليز لن يكفوا عن استئناف القتال ، فبادر إلى تعبئة جيشه لمحاربتهم ،

وكانت المعركة الثانية فى الحماد ، وكانت هزيمة ساحقة للانجليز ملأت نفوس المصريين ثقة ، وأسقطت هيبة الجيش الإنجليزى فقد أبيد عن بكرة أبيه .

وبهذا النصر المؤزر للجيش المصرى ، جلا الإنجليز عن الاسكندرية ، بل عن مصر ، فى سفنهم الحربية .

وبهذا استولى محمد على على تقدير الشعب ، وأصبح العلم الفرد ، ونال تقدير السلطان ، فأنعم على ابرهيم واخوته بالرتب والخلع الثمينة .

وبلغ من ابتهاج السلطان والحكومة التركية أن أعيد ابرهيم باشا إلى مصر مطلق السراح معززا مكرما ، حيث كان بالآستانة رهينة على سداد أربعة آلاف كيس ، وفاء لالتزام محمد على بها للباب العالى ، كما أسلفنا القول .

فكان تنازل الحكومة التركية عن هذه الأكياس ، واطلاقها سراح ابراهيم ، اعرابا عن تقديرها لهذا النصر المبين على عدو الدولة اللدود ، تستحق عليه أسرة محمد على باشا كل تكريم وتعظيم .

هذا موجز للصعاب التى واجهت محمد على فى بداية حكمه وهو لا يزال حديث عهد بالبلاد . وهو يثبت بأوضح بيان أن نجاح محمد على لم يكن وليد الصدفة ، وأنه لم يكن بالرجل المجدود ، دون مواهب خارقة ، وصفات ممتازة ، بل عبقرية فذة ، لا يجود الزمن بمثلها إلا فى القليل النادر .

هذا هو الرجل الذى تتلمذ عليه ابرهيم باشا ، وهذا هو المهد الذى تخرج فيه ، وهذه هى الصورة التى تفتحت عين ابرهيم عليها وهو شاب ناشىء ، فأخذ منها الدروس الناجعة ، تكمل الصور التى بعثها فى نفسه محمد على ، ونقل له فيها ما خلفه فيه جده ابرهيم أغا .

واننا لنمعن النظر فى سياسة محمد على ، وأسلوبه فى معالجة الناس والحوادث ، فنجد الكثير الثمين ، مما ينبغى أن يكون نصب عين النشء والقادة على السواء .

فقد وطد عزمه من بادىء الأمر على أن يكون معبود الجماهير ، صديق العلماء ذوى النفوذ ، محبوب الجيش ، يعمل بالحيلة قبل القوة وهو على أهبة الاستعداد لاستخدام القوة عند اللزوم ،

لا يعتمد على ناحية دون أخرى فهو صديق الفرنسيين ما دام الانجليز يمالئون عليه ، يعالج الرجال من نقط ضعفهم فلم يبخل على ولاة الأمور إذا تطلعوا إلى الهدايا والمال ، يبذله بسخاء لتوطيد ملك وخلق دولة .

ومع ذلك فقد حدث فى أثناء حرب المورة حادث يدل على أن الحكم والسياسة لم يفقداه شيئا من روح الشجاعة اللذين اتصف بهما منذ حداثته .

فنى ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٥ استطاعت سفينة يونانية ، رافعة العلم الروسى على ساريتها ، أن تقترب من السفن المصرية الراسية فى مينا الاسكندرية ، وأن تقذفها بقذائف محرقة ، لتشعل النار فيها ، فأطلقت عليها السفن المصرية نيرانها ، فنزل بحارتها إلى زورق أقلهم سالمين إلى سفينة يونانية أخرى كانت تنتظر عند مدخل الميناء . ولم تحدث قذائف اليونانيين ضررا بالأسطول المصرى ، لأن الريح حملتها إلى جهة خالية من السفن .

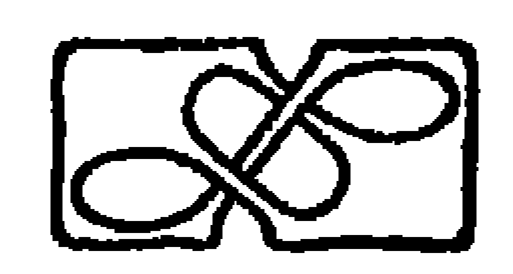
وكان محمد على فى قصر رأس التين وقتئذ ، جالسا فى مكان يشرف على الميناء ، وشاهد ما حدث فامتطى صهوة جواده ،

وخف إلى الحصن مسرعا ، لكى يدرك اليونانيين قبل فرارهم ، ولكن تبين له أن مرمى مدافع الحصن لا يدركهم ، فأمر بعض السفن بمطاردتهم . وكانت سفينة واحدة متأهبة للاقلاع فورا ، فأقلعت وحدها فى مطاردة الفارين ، وفى الغد أقلعت ثلاث سفن أخرى .

وبعد يومين تلقى محمد على نبأ بأن اليونانيين أحرقوا سفينة كانت قادمة الاسكندرية محملة بالخشب ، فكبر الأمر عليه ، واستثار نخوته ، فأسرع على الفور إلى أول سفينة حربية وجدها فى الميناء وانطلق بها إلى البحر ، متعقبا اليونانيين ، فاستغرق غيابه أسبوعا بطوله .

والآراء متفقة على أنه لو التقى باليونانيين لكان من المحتمل جدا أن يلقى حتفه لأن عددهم كان أكبر من عدد رجاله بمراحل ، وعدد سفنهم أكثر من عدد سفنه .

ولكنه محمد على ، بانى مصر الحديثة ، وأبو الأبطال .



الفصل الثالث

فتح الدرعية

في ميادين الحروب الدموية الرهيبة ، وبين عواصف المتاعب والضحايا والآلام ، وتحت سيل متواصل من العرق والدم والموت ، بإزاء مضمار القوة ، وفي مجال العنف والشدة ، يكتسب استقلال الأمم ، فتتكون وتسير نحو التوطد ، فالسمو والرفعة ، فالبهر والإعجاب والإجلال ، والوصول إلى قمة المجد والفخار .

هذه سنة الله في الأمم ، ينقلها التاريخ متكررة متعددة ، ومتجددة متأكدة ، لا تجد فيها خلافا ، ولا نرى في سننها اختلافا ، ولم نر أمة في التاريخ قد نالت استقلالها ومنعتها وعزتها رغداً وراحة ، أوجاءها مصادفة وملاطفة .

على ضوء كل هذا ننظر إلى أسس سياسة محمد على فى حروب الحجاز التى خاضها عنيفة رهيبة ، وخاضها بجيشه الناشىء وشعبه الفتى ، لم يحط فى عضده ما وقع له ولشعبه من خسائر فادحة ، وضحايا وانكسارات ، وخاض كل هذا بين العزم والثقة والطموح فى سبيل الانتصار فما وهن له عزم ولا انثنت له همّة

لم يكن لمصر مغنم فى الحجاز ؛ ولا لها مصلحة فى حربه ، ولا هى بالطامعة فى الحرب من أجل الحرب ، وليس لها أعداء فى الأرض المقدسة تبغى قصف عودهم ، ولكن مصر كانت ولاية تركية ، للسلطان التركى عليها حق الاستجابة لأمره ، وأن تخف إلى مساعدته ومناصرته ، وأن تعبىء جيوشها فى خدمة مصالحه .

وكانت الدعوة الوهابية قد استفحلت فى أرض الجزيرة العربية وآذنت أن تحد من ظل السلطان التركى ، وان تعصف بهيبته وسلطته ، وأن تزلزل من دعواه أنه « حامى الحرمين الشريفين » وهو خليفة المسلمين ، وأمير المؤمنين .

وأنفذت تركيا حملات متعددة لاخماد نار هذه الفتنة ، والقضاء على هذه الحركة المستعرة فباءت حملاتها جميعا بالفشل ، وتعطلت شعائر الحج ، وامتدت دعوة الوهابيين بالسيف والنار ، وتحت تأثير العقيدة والدين ، فتحت نجدا ، ووصلت إلى حدود مسقط ثم إلى شواطىء الخليج الفارسى ، وانهارت أمامها الحجاز ، وقبضت براثنها على عسير واليمن ، وزحفت إلى الشام حتى وصلت إلى حدود فلسطين فى سنة ١٨١١ .

هذه هى الخطوط الرئيسية للحالة عند ما تدخل محمد على ليعيد الأمر إلى نصابه .

فهل كان لمحمد على رهو يخف إلى نصرة السلطان أخيرا ، ويأتمر بأمر مولى الامبراطورية ، ويساهم فى ترميم الكيان المنقوض ، رأى يخفيه وغرض يضمره ؟

لقد طلبت إليه حكومة الأستانة فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٠٧ أن يرسل الجنود إلى الحجاز لقمع الفتنة الوهابية ، فلم يستجب وما كان قد مضى على ولايته عامان . وجددت الطلب فى سنة ١٨٠٩ ، دون جدوى . وكان فى كل مرة يتمحل الأعذار ، ويتعلل باشتغاله بحرب المماليك واستئصال شأفتهم .

أما وقد انتهت حملته على المماليك فى الوجه القبلى ، وقضى على سلطانهم القضاء المبرم ، وعاد إلى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ ، فوجد رسولا من الآستانة يحمل رسالة أشبه ما تكون بالاستنجاد بعد أن بلغ السيل الزبى ، وما كان محمد على ليجيب إلا بعد ترو وإمعان ودراسة وتفكير ، وإذا به يجد فى تلبية نجدة السلطان فرصته السانحة التى قلما يجود بمثلها الزمان .

فرصة سانحة ليرد على الدولة التركية قفازها الذى ألقته فى وجهه مرارا بأن سعت غير مرة فى اقتلاعه عن العرش ، وحاكت الدسائس له ، وألقت الأشواك فى طريقه ، وأقضت مضجعه ، حسدا له ، وغيرة منه ، بل تطيرا من سلطانه الذى يعلو ويؤذن أن يسمو على سلطانها . فاذا نجح فى ما أخفقت فيه جيوشها وحملاتها ، كان هو الرد العملى البارع .

فرصة سانحة لاعلاء شأنه ، وتوطيـــد مركزه ، وسمو مكانته إزاء تركيا ، بأن يقف معها موقف الند للند ؛ بل موقف الحامى للمحمى ، فلا تعود مصر مجرد ولاية تركية كسائر الولايات ، بل يحسب لها حساب ، كإمارة مستقلة ،

لها كيانها ولها خطرها .

فرصة سانحة لإعلاء مصر ومكانتها فى العالم الشرقى والاسلامى ، إذ يخف الى نصرة الاراضى المقدسة ، وينقذ الحرمين الشريفين من طغيان الوهابيين ، ويعيد مناسك الحج ، ويؤمن سبيل الحجاج . وأى اعلان وأى برهان على تحقيق مأربه من أن يسير ركبان الحجاج فى كل سنة آمنين شاكرين داعين له ، فتتحدث عنه الناس وتتجلى فى خاطرها عظمته وقوته وبأسه .

وفرصة سانحة لتدريب جيشه المصرى الناشىء ، وصهره فى أتون الحروب والتخلص من طوائف الجنود الأرناؤود والدلاة ، الذين أغراهم الرغد والخفض على التمرد والشغب ، وتعويدهم الرجولة . والخشونة والخضوع للنظام الصارم ، وتحمل المشاق فى الأصقاع النائية من جزيرة العرب .

بل فرصة سانحة للأخذ بيد هذا الشعب الناشىء ، الذى عرف قدرته ، على تكاليف حياة المجد والنهوض ، ففرض

عليه الضرائب والاتاوات من أجل الحرب المقدسة ، فلا يسعه الا أن يقبلها راضيا مبتهجا فى سبيل الله ، وفى سبيل الإنفاق على الجهاد المفروض لاسترداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج ، حتى اذا انقضت هذه الحرب المقدسة ، كان الشعب قد تعود على قبول الضرائب والفروض ، وهى لا بد منها لتكوين الدولة ، بل تكوين الامبراطورية التى كان يطمع محمد على أن تنال مكانها ومكانتها تحت الشمس .

هذا هو الرأى السديد والسياسة الحصيفة ، وبعد النظر ، وحسن التقدير ، التى كانت أساسا للحملة المصرية على بلاد الحجاز .

وحققت الأيام صدق نظره ، إذ عظمت منزلته حيال تركيا خلال الحرب الوهابية وبعد انتهائها ، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية ، وامتدت سلطتها الى جزيرة العرب ، وانبسطت رقعتها واتسعت حدودها ، فان الجيوش المصرية التى جردها محمد على لحرب الوهابية لم تنسحب منها بعد كسر الوهابيين ، بل ظلت تحتلها ، وأخذت الحكومة المصرية

تبسط سلطانها فى أصقاع الجزيرة ، وتنصب لها الحكام وقواد الجند ، كما أن تركيا كافأت محمد على بإسناد مشيخة الحرم المكى وولاية جدة الى ابنه ابرهيم ، فاتسع فعلا نطاق مصر وضمت اليها بلاد الحجاز ، ونجد ، والعسير ، وجزءا من اليمن ، ثم وصلت سيادتها الى شاطىء الخليج الفارسى ، أى أن نفوذ مصر قد امتد إلى معظم جزيرة العرب ، وظل كذلك إلى أن اضطربت الاحوال السياسية سنة ١٨٤٠ واضطرت مصر إلى سحب جنودها » — عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث (ص ١١٧) .

قامت الحملة المصرية ، معقودا لواؤها لأحمد طوسون باشا نجل محمد على ، فى مواكب من المشاة والفرسان والمهمات ، فأقلع الاسطول المصرى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ من السويس إلى ينبع ، يحمل المشاة والمهمات ، أما الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا فقد قاموا من بركة الحاج يوم ٦ اكتوبر عن طريق برزخ السويس فالعقبة . فاحتلت الحملة

البحرية ميناء ينبع ، بعد قتل وأسر ، ثم جاء طوسون باشا بطريق البر ، حتى إذا تلاقت وحدات الجيش ، وتجمعت القوات ، ابتدأ الهجوم العام ، فاحتلت القوات المصرية « بدر » ، ثم أخذت طريقها إلى « الصفراء » بعد معارك دموية غاية فى العنف ، ثم فتحوا المدينة ، واحتلوا الطائف .

ووقفت الانتصارات عند هذا الحد ، إذ وقعت الهزيمة على الجيش المصرى فى « تربة » و « الحناكية » ، واجتمعت عليه الأمراض ، وشدة القيظ ، ورداءة الطقس ، وقطع المراحل الشاسعة فى الصحراء ، فكانت الخسائر جسيمة ، تنذر بانكسار ليس بعده انتصار .

واضطر محمد على أن يقوم بنفسه على رأس حملة جديدة إلى الحجاز ، لانقاذ مايمكن انقاذه ، فأبحر من السويس فى أغسطس سنة ١٨١٣ ، وانتهت المعارك بأن طلب الوهابيون الصلح ، فعاد محمد على إلى مصر ، وأخذ طوسون باشا فى مفاوضة الأمير الوهابى ، حتى انتهوا إلى هدنة ، وانتقلت المفاوضات إلى القاهرة وعاد طوسون باشا اليها .

ولكن الصلح المؤقت الذى انتهت اليه هذه الهدنة ، كان قصير الأجل ، فلم تنقض إلا فترة قصيرة من الزمان حتى جاءت الأخبار من الحجاز بأن بعض القبائل العربية قد تمردت بتحريض الوهابيين ، وكان لابد من حملة جديدة قوية ، لاخماد نار الفتنة ، واستئصال شأفة العصاة .

وكان طوسون قد توفى فى مصر ، فى تلك الأثناء ، وكان لابد من قائد جديد للحملة ، وقد قصصنا عليك الأسطورة التى تتحدث عن كيفية اختيار هذا القائد ، فى الفصل الأول من هذا الكتاب (ص ٢٧) .

وسواء أكانت هذه الأسطورة تقوم على أساس صحيح ، أم كانت من نسج الخيال ، فقد أسندت قيادة الحملة الجديدة إلى نجله ابرهيم ، وكان يومئذ فى السادسة والعشرين من عمره وإن كان قد بزغ نجمه فى القيادة والحصافة والبصر بالأمور .

فقام ابراهيم من بولاق يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ ، قاصدا إلى قنا ، وهو فى طريقه يعزز جيشه ويقويه ، بتجنيد من ينضم إليه من الفلاحين ، وبامداده بالمعدات وبالإبل ، ومن

فنا نقلت الحملة على ظهور الإبل إلى القصير ، حيث أقلع بهم الأسطول المصرى إلى ينبع فبلغها فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦ .

ولم يكد يستقر به المقام فى ميناء ينبع حتى سار إلى المدينة فأدى فروض الزيارة النبوية ، وأخذ ينظم قواته ومعداته استعدادا للزحف والغزو.

ثم سار بجيشه فعسكر فى « الصويدرة » شمالى المدينة . وأخذ يستعد للزحف على نجد، وعانى إذ ذاك متاعب كبيرة فى الحصول على المعدات والابل لكثرة ما ناوأته القبائل الضاربة فى تلك الجهات ، فكانت تغير على القوافل بين الصويدرة والثغور البحرية .

وهنا تتجلى مواهبه كقائد عظيم ، وكفارس ميدان ليس له ضريب ، يضع السيف فى موضع السيف ، والندى فى موضع الندى ، فبالشدة والقوة حينا ، وبالسخاء والكرم أحيانا ، أمكنه أن يتغلب على هذه القبائل المعادية ، وجعلها تؤثر جانبه وتنضم إليه وتتعهده بما يشاء من الإبل والوسائل .

يتحدث « سولت » القنصل الانجليزى بمصر فى ذلك الوقت

إلى حكومته فى تقرير رسمى ، فيعزو نجاح ابرهيم إلى « حز
الذى لا حدّ له ، وسخائه العظيم ، وبره الشديد بوعوده
والفضل ما شهدت به الأعداء .

وما كاد يمهد طريقه ، ويطمئن إلى اخلاص القبائل المجاو
حتى زحف من الصويدرة إلى الحناكية فتحصن بها ، واتخذ
نقطة ارتكاز لزحفه وهجماته ، يوجه منها ضرباته إلى عرين خصما

وكان الوهابيون قد اتخذوا « الرس » معسكرا لهم ، أجمع
فيها قواهم ، وتحصنوا بها ، فسار إليها ابراهيم بجيوشه فغلد
طلائعها ، وألزم جيوش الوهابيين أن تحصر نفسها فى الرس ،وضر
عليهم الحصار .

ولكن الحصار استمر ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما
والوهابيين يدافعون عن أرض معسكرهم دفاع المستميت ، ورأ
ابراهيم أن خسائره ستتفاقم إذا هو استمر فى هذا الحصا
العصيب ، من نقص فى الذخيرة والمؤونة واستهداف للجوع
فضلا عما قد يخامر نفوس الجند من الملل واليـــأس ، وع
معاناة الشدائد والأمراض والزعازع والأعاصير . وإذن فليكف

السيف لحظة ، وليحكم العقل والسياسة فهذا وقتها .

ووافق ابراهيم على شروط لوقف القتال فى الرس ، تقتضيه أن يرفع الحصار عن المدينة وأن لا يدخلها أحد من رجاله ، على أن يضع أهلها السلاح ويقفوا على الحياد ، فاذا استولى الجيش المصرى على مدينة عنيزة ، فان الرس تستسلم إليه دون قتال ، أما إذا عجز عن عنيزة ، فله أن يعود إلى قتال أهل الرس ،

وقبل ابرهيم هذا الشرط العجيب ، وأثبتت الأيام أنه كان بعيد النظر ، صائب الرأى ، موفق الخطو .

سار ابراهيم من الرس قاصدا « عنيزة » فاحتل فى طريقه « الخبراء » بعد أن أمطرها وابلا من مدافعه لعدة ساعات ، ونظم فيها جنده ، وأعد عدته ، واستراح جنوده أحدعشر يوما ، استعدادا للموقف العصيب ، الذى تتوقف عليه مصائر الحرب ومصائر الحملة نفسها .

ثم سار إلى عنيزة ، فحاصرها ستة أيام ، وضيق عليها الخناق، حتى قبل حاكمها محمد بن حسن على أن يسلم المدينة على أن لا تؤسر الحامية الوهابية المعسكرة فيها ، ويسمح لهم أن يخرجوا منها ،

ويتخلوا عن الأسلحة والذخائر والمؤن ، ورضى ابرهيم بهذ الشروط ، ودخل عنيزة ظافرا منصورا .

وما أن سقطت عنيزة ، حتى استسلمت الرس ، طبقا للاتفاق فأرسل ابرهيم إليها كتيبة من جنده فاحتلتها .

وكان سقوط عنيزة ، وتسليم الرس ، نقطة حاسمة فى تاريخ هذه الحرب ، كان لها أكبر الأثر فى سير القتال ، ورجحان كفة الجيش المصرى ، فقد وقعت فى نفوس الجنود الوهابيين أسوأ موقع يفت فى عضدهم ، ويحطم روحهم المعنوية ، كما كان لها أكبر الوقع فى تقدير القبائل . فجنحت إلى التسليم إلى ابرهيم الذى لايقهر ، والذى يسير النصر فى ركابه .

وتراجعت جيوش الوهابيين إلى « الشقراء » ، وحصنت « الدرعية » عاصمة الدعوة الوهابية ، ومقر إدارتها وإدارة جيوشها ، خيفة أن تسقط بدورها تحت طرقات ابرهيم .

فاستأنف ابرهيم زحفه ، فاحتل « بريدة » وعسكر بها ينظم شئونه ، وينتظر المدد القادم إليه من مصر ، ويستعد للموقعة الفاصلة ، إذ يضرب الحركة الوهابية فى حصنها الحصين

وقلعتها الأخيرة .

وبقى فى بريدة شهرين ، ثم سار فى أواخر ديسمبر سنة ١٨١٧ ، قاصداً إلى « الشقراء » ، وهى إذ ذاك أمنع بلاد نجد ، عدة وإستعداداً ، وفيها مقدمة الجيوش الوهابية وحصونهم المنيعة وقواهم المعبأة . فوصل اليها يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ .

وحاصرها ، وشدد عليها التكير ، وأمعن فى ضربها بالمدافع وركز جهوده وجنوده فى فتحها ، والقضاء على مقاومتها ، والاطاحة بمنعتها ، حتى لم يجد أهلها بدأ من التسليم ، فرضى ابراهيم أن لا يأخذ منهم أسرى ؛ وأن يأذن لهم بالذهاب أين شاؤا : بعد أن أخذ عليهم عهداً وميثاقاً ، أن لا يحملوا السلاح مرة ثانية فى وجه الجيش المصرى ، وإن نقضوا عهدهم استحل دماءهم.

وسلمت « الشقراء » يوم ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ ، فدخلها ابراهيم دخول الظافر المنتصر ، وكانت نصراً حاسماً، لما لموقعها من الشأن والأهمية .

يقول الجبرتى : « وفى أواخر ربيع الثانى سنة ١٢٢٣ (فبراير

سنة ١٨١٨) حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لابرهيم باشا وأنه استولى على بلدة تسمى (الشقراء) وأن عبد الله بن سعود كان بها نخرج منها هاربا الى الدرعية ليلا ، وأن بين عسكر الأتراك والدرعيين مسافة يومين ، فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدومه مدافع من أبراج القلعة ، وذلك وقت الغروب من يوم الاربعاء سادس عشرينه » .

وما استتب له الأمر فى « الشقراء » الحصينة ، حتى سار إلى « الدرعية » الحصن الأكبر والأخير ، فعرج فى طريقه على « ضرمة » فامتنعت عليه ، فضربها بالمدافع ، واستولى عليها بعد قتال عنيف وخسائر فادحة ، وخربها تخريبا .

وألزمه هطول الأمطار أن يظل فى « ضرمة » شهرين ، حتى انتهى موسم المطر الشديد ، فغادرها فى ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ ، قاصدا « الدرعيه » فحط تجاهها يوم ١٦ ابريل سنة ١٨١٨ فى جيش مؤلف من ٥٥٠٠ من المشاة والفرسان ، مجهزين باثنى عشر مدفعا .

ونقف هنا قليلا ، لنتعرف على الدرعية ، ذات الشهرة التاريخية الكبيرة ، التى كان سقوطها أول حجر فى بناء الامبراطورية المصرية .

والدرعية تتألف من خمسة أقسام متجاورة ؛ يحيط بكل منها سور محصن ، فكان يتألف من هذه المجموعة موقع حصين منيع ، تحميه مدافع قوية . . .

ووقف ابراهيم أمام هذا الحصن القوى يعد عدته ؛ ويرسم خططه ، ويفكر فى المصير ، الذى قد يتمم انتصـــارته ويتوجها ، أو يقلبها رأساً على عقب .

فحاصر المدينة ؛ وأمطرها وابلا من مدافعه ، ولكنها امتنعت عليه ، واستيأست فى المقاومة ، واشترك رجالها ونساؤها فى صد الجيش المغير ، واستطاعوا أن يوقفوا الجنود المصرية ، جنود ابراهيم ، شهرين لاينالون طائلا من الحصار .

وكان طول الحصار من المواقف المحرجة ، الشديدة الحرج ، فيها مجال للنقص فى الذخائر والمؤن ، وفيها إضعاف للروح المعنوية ، وطول حصار الدرعية بالذات كان كفيلا بتحطيم

القوى النفسية جميعاً ، اشهرتها فى الحصانة ، واعتبارها آخر موقع للوهابيين الأقوياء ، والاستيشاس والاستماتة التى بدت من أهلها رجالا ونساء ، وطول خطوط التموين والمـــدد للجيش المصرى البعيد عن قواعده ، وحسبك أن تعلم أن الدرعية تبعد عن المدينة المنورة ، التى اتخذهـا ابرهيم قاعدة للحركات الحربية ، بنحو ٤٠٠ ميل .

وأبت الطبيعة إلا أن تتضافر على متاعب الجيش المصرى وزيادة همومه وصعـــابه ، فابتلته بنكبة كادت تودى به وتقضى عليها القضاء الأخير ، لولا قوة مراس ابراهيم وكفاءته كقائد ، وكرجل عرف كيف يستهوى قلوب رجاله ، وكبطل ينتزع النصر من أنياب الهزيمة النكراء .

فقد هبت عاصفة على معسكر الجيش المصرى يوم ٢١ يونيه سنة ١٨١٨ ، وكان أحد الجنود يوقد ناراً فهبت منها شرارة ، سقطت على إحدى الخيام فأشعلت فيها الحريق ، وكانت هذه الخيمة على مقربة من مستودع الذخيرة ، فامتدت النار إلى المستودع ، وكانت النتيجة المحتومة .

انفجر المستودع على الفور ، ونسف الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش كلها ، وحدث ما شئت عن ذعر الجنود ، وانهيار روحهم المعنوية ، من فعل دوى الانفجار ، ومما أصاب الذخيرة من التدمير ، وهم أحوج إلى القليل لبعدهم عن قواعدهم ، وأمامهم عدو قابع فى داره محتفظ بذخيرته ، ومؤونته رهن إشارته.

كادت تحل الهزيمة بالجيش ، ويختل نظـــامه ، ويذهب أيدى سبأ ،

ولكن ابرهيم هو ابرهيم ، ولا تنجلى قوة البطل أكثر ما تنجلى فى مواقع الخطر ، ومواطن الضعف ، وحوادث الخذلان فلم تفارقه بطولته وقوته وصادق عزمه .

قابل هذه الكارثة بالهدوء ، والشجاعة ، والجلد ، ولم يزد على أن قال لمن حوله « لقد فقدنا كل شىء ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا . فلنتدرع بها ، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض »

وهنا حصد ابراهيم ما سبق أن زرعه وغرسه فى قلوب جنوده من الحب والثقة والاخلاص والطاعة ، ولولا هذه

الروح العالية والقيادة الحكيمة ، بل الرجولة والبطولة ، لكانت هذه النكبة ساحقة ماحقة ، لم تبق ولم تذر .

أخذ ابراهيم فى تشجيع الضباط والجنود ، واستنهاض صلابتهم ، ثم أخذ يواجه الموقف الحرج بكل ما يستطيع من عدة ووسيلة ، فأرسل يطلب الذخيرة من المواقع التى يحتلها الجيش المصرى ، والتى خضعت لحكم ابراهيم ، كالشقراء ، والرس ، وبريدة ، وعنيزة ، والصويدرة ،والحناكية ، ومكة ، والمدينة وينبع .

ولكن ما كاد الوهابيون يرون النكبة التى حلت بذخيرة الجيش المصرى ، حتى رأوا فيها فرصتهم الفريدة ، فقرروا أن يأخذوا الجيش المصرى على غرة ، فبدأوا هجومهم صباح اليوم التالى فى جموع غفيرة ، وهجوم عنيف ، وأمل .

ورأى ابراهيم ما أوقعه فيه الزمن من مأزق حرج فانبعثت قواه الكامنة ، كقائد عظيم موهوب ، وأحكم خطط القتال والهجوم ، وأوصى جنوده بالاقتصاد فى الذخيرة ، وتمكن بحصافته وقوة تدبيره أن يرد الوهابيين على أعقابهم

ويقاوم هجماتهم ، ويوقفهم عند حدهم ، إلى أن جاءته الذخائر وأمكنه أن يسد النقص فى معداته .

وكأنما يأبى القدر إلا أن يمتحن ابراهيم بالحرج بعد الحرج ، ليستخرج مواهبه الكامنة وقدراته المدخرة الخفية ، فجاءه كتاب من أبيه بأنه مدّه بثلاثة آلاف من المقاتلة بقيادة خليل باشا .

عزّ على ابراهيم أن يكون انتصاره رهن مجىء المدد الذى على رأسه خليل باشا ، وهو الواثق من نفسه والمؤمن بنصره ، فإن انتظر وتريث فى هذا انتقاص من قدره لا يرضاه ويأباه ، وهو يرى أنه قطع الشوط إلى نهايته وأن المعركة الأخيرة والحاسمة هى المرقعة التى تنتظره وينتظرها ، فما توانى وما أذعن للقدر وما تلهف على المدد ، بل تدبر الأمر والهب فى رجاله الحمية واستحث فيهم النخوة والرجولة وأعلمهم أنهم إذا انتصروا اليوم فالفضل كل الفضل ، والنصر على الوهابيين راجع لهم إليهم لا محالة ، وإن صبروا حتى جاء المدد فقد انتقل الفضل منهم إليه ، ونسى الناس انتصاراتهم

الأولى بهذه الموقعة الأخيرة التى سوف تضع للحرب نهايتها فيسعدون بثمرة النصر والفخر والمجد مدى الأيام .

وضاق الخناق على الوهابيين ، ورأوا أن هذا الأسد الكاسر لايفت له عضد ، وأيقنوا أن السلامة فى التسليم فما لهم من دون ذلك محيص ، وكان الحصار قد دام خمسة أشهر طوال ، ورأى أمير الوهابيين أن ليس فى مقدوره الاستمرار فى المقاومة بعد كل هذه الخسائر والمتاعب ، لجنح إلى السلم ، وبعث فى ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ برسول إلى ابرهيم باشا يطلب الهدنة ، فالصلح .

فوافق ابرهيم على وقف القتال ، ثم قدم الأمير الوهابى إلى معسكر ابرهيم باشا فاستقبله بالتجلة والترحاب اللائقين بقائد عظيم ، وتم الاتفاق على أن تسلم الدرعية ويسير الأمير الوهابى إلى مصر فالآستانة كرغبة السلطان التركى ، على أن لا يوقع الضرر بالدرعية ، ولا يضار الوهابيون فيها .

وانتهى حصار ستة أشهر ، بهذا الفتح المبين ، وبعد ذلك لم تلبث المدن الباقية من نجد أن سلمت وخضعت لقائد الجيش

وبطل مصر والعروبة .

وجاءت إلى مصر البشرى بانتصار جيوشها فى الحجاز ، وفوز ابرهيم باشا ودخوله الدرعية ، فابتهجت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأطلقت المدافع من القلعة يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ، اعلانا لهذا النصر المبين .

وهنا نترك الجبرتى يتحدث ويصف أثر النصر فى مصر :

« فى سابع من ذى الحجة سنة ١٢٣٣ (اكتوبر سنة ١٨١٨) وردت بشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى أمير الينبع ، بأن ابرهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية فانسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما ، وانجلى عنه الضجر والقلق ، وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ، وفى ثانى عشر وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع ، وذلك قبيل العصر ، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة ، واستمر الضرب من العصر إلى المغرب ، بحيث ضرب بالقلعة خاصة

ألف مدفع ، وصادف ذلك شنك أيام العيد ، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق » .

وتجددت الحفلات فى نوفمبر سنة ١٨١٨ عندما وردت تفاصيل الانتصارات التى نالها ابرهيم باشا وجيشه ، وبعد انقضاء سبعة أيام أقيمت حفلات أخرى على النيل فى جهة بولاق ، بمناورات بحرية اشترك فيها السفن والمراكب « وزين أهالى بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم ، ودقت الطبول والمزامير والنقرزانات فى السفائن وغيرها ، وطبلخانة (موسيق) الباشا تضرب فى كل وقت ، والمدافع الكثيرة تضرب فى ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء ، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين » .

وما نقلناه هنا عن الجبرتى انما هو بعض من كل ، وقليل

من كثير ، فقد أسهب فى الوصف أسهاب من بهرته روعة الحفلات ، ولا نجد فى كتابه كله وصفا بهذه الروعة وهـذا الاسهاب ، مما يدل على أن هذه الحفلات قد فاقت فى جلالها وفخامتها كل ماتقدمها من الحفلات فى مختلف المناسبات .

وإن دل هذا على شيء فانما يدل على أن الانتصار الحربى المبين قد أيقظ فى هذا الشعب العظيم روحه الهاجعة ، واستثار فيه نخوة الفخر والعزة ، والسمو إلى مراقى المجد والعظمة ، وهو بعد يعطى الدليل المحسوس على قوة هذا الشعب وشكيمته، ورغبته فى التضحية فى سبيل الأمجاد القوية المنيفة .

وهى حرب شاقة ، دامت سبع سنوات ، وقدمت على مذبحها التضحيات الجسيمة ، فأن يستجيب الشعب بالفرحة بالنصر والظفر ، فى أول حرب خارجية خاض غمارها فى تاريخه الحديث ، أكبر مشجع لمحمد على فيما يأتى من الحروب، إذ يعتمد على سواعد شعب يقاسمه رغبته فى الفتح وفى بناء المجد الواسع العريض ، مهما كلفه من جهد ومن نصب .

وبقى ابرهيم باشا بعد سقوط الدرعيــــة ، يوطد الحكم بأراضى الجزيرة العربية ، وقد دانت له من أقصاها إلى أقصاها إلى أن اعتزم العودة إلى مصر ، فعاد من طريق ميناء القصير إلى قنا ثم ركب النيل حتى بلغ الجـيزة يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ ، واستقبله والده فى قصره بشبرا ، فضمه إلى صدره ، والدموع تترقرق فى عينيه ، فخرا بابنه القائد المظفر العظيم .

وفى اليوم التالى دخل ابرهيم القاهرة دخول الغزاة الفاتحين وشق المدينة من باب النصر إلى القلعة ، فى موكب يحفــــه الجلال ، وتترامى على أطرافه المهابة ، وقد احتشدت الجماهير لتحيته ومشاهدة طلعة الأسد الظافر الذى أعلى رأس مصر بين البلاد ، وبنى لها المجد والذكر والفخر .

ولما بلغ القلعة استأنف سيره فى موكبه المهيب إلى مصر القديمة ، ومن ثم قصد إلى قصره بجزيرة الروضة .

وزينت المدينة بالزينــــات الباهرة ، ابتهاجا بعودة الأسد الظافر ، وظلت تقيم الأفراح والزينات سبعة أيام متوالية .

أما عن فرحة الشعب واحتفائه بالنصر فالجبرتى يقـول :

« استمرت الزينة والوقود والسهر بالليل ، وعمل الحراقات ، وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ، والمغانى والملاعب فى مجامع الناس ، سبعة أيام بلياليها ، فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط » .

ثم نرى كيف كتب عنه الأجانب ووصفوه ، فهذا « إيميه فنتريفيه يقول فى كتابه عن « الكولونيل سيف » ، واصفا الاحتفالات الباهرة بعودة ابرهيم :

« كان أهم ما يستلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن الوالى (أى محمد على) لم يشترك بنفسه فيها ، لكى لا يكون لأحد غير ابرهيم شىء من عظمتها وجلالها ، ولهذا بقى فى أثنائها بعيداً عن الأنظار ، تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة ، هى عاطفة الأب الحنون . فوقف فى مسجد السلطان الغورى ، فى موضع لايراه منه أحد ، يشاهد من إحدى نوافذه موكب الأغوات والأعيان وعامة الشعب والجند يسيرون فى الطريق ، وكلهم يرفعون أكفهم إلى السماء ، ضارعين الى الله أن يحفظ لهم مصدر سعادتهم وهنائهم ، بطل ذلك

اليوم المجيد . . . . .

ولقد كان النصر فى الحجاز يستحق كل هذا وأكثر منه ، فقد كانت حرباً غاية فى العنف وكانت كل الظروف ضد الجيش المهاجم وكل الظروف مواتية للجيوش المدافعة . فإذا أضيف هذا كله الى فعل الطبيعة وعوامل الأقدار ، كان النصر ثمرة تنتزع من بين براثن الأسد الهصور ، وكفى أن يكون هذا أول نصر حقيقى عظيم لجيش مصر بعد ركود طويل ، على جيش هزم الأتراك شر هزيمة .

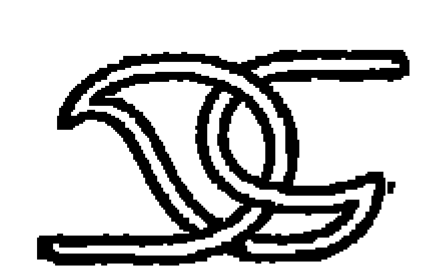
فقد كان الجيش المصرى يواجه فى جزيرة العرب قوما مدربين على القتال ، اشتهروا بشدة البأس ، وعاشوا للكر والفر ، وهم بعد يدافعون عن ديارهم ويتحمسون لها ، وعندهم الأمداد الطائلة من المحاربين ومن غير المحاربين ، ولا يبعدون عن قواعدهم وخطوط تموينهم ، وقد تعودوا على حياة الصحراء ومتاعبها ومصاعبها ، وأمراضها وأهوالها .

ثم هم بعد ذلك به معتزون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل ، قد كسروها جميعاً ، ومزقوها شر ممزق

فهم يحاربون وفى ضميرهم الثقة بالنصر كل النصر ، وهذا عامل له أثره وله خطره ، بل لعله أخطر العوامل فى سير الحروب .

فاستخلاص النصر الظافر من أعناق هؤلاء الأبطال المغاوير شيء له قيمته وله تقديره ، وعمل من أعمال البطولة الخالدة ، يكتبه التاريخ فى سجل ابرهيم باشا القائد الماهر ، فيضعه فى أعلى صف من صفوف القواد الخالدين .

وفتح الدرعية فتح حربى مبين ، تتمنى الظفر بمثله أية دولة ، فى أى زمن .



الفصل الرابع

فى أعالى النيل

كان من أثر الانتصارات الرائعة التى نالها ابرهيم فى فتح جزيرة العرب أن منحه سلطان تركيا لقب « أمير الحرمين الشريفين » و « والى الحبشة ».

فهل كانت (ولاية الحبشة) الى ضمت الى أملاك مصر هى التى أهابت بمحمد على أن يفكر فى فتح السودان ، ليجعل من الركن الشرقى لإفريقيا كله كتلة واحدة متحدة تضم النيل من أعاليه ، وتسيطر على البحر الأحمر ، وتمتد منه الى البحر المتوسط .

أم كان الدافع الى هذا الفتح ما رسخ فى اعتقاد محمد على من أن أراضى السودان والحبشة غنية بالمناجم ، زاخرة

بالمعادن القيمة ، يضيفها الى ملكه ، ويستخرج منها مكنوناتها ، فيكون منها ثروة عظيمة يواجه بها مطالب المجد الذى يرنو اليه ويرمى الى تحقيقه .

أم كان من أهم أسباب الحملة أن يستولى محمد على على هذا الجنوب المليء بالسود الأشداء بل الجنود الأقوياء ، ولهم قيمتهم الكبرى فى تحقيق أغراضه وأغراض الوطن ، يعزز بهم جنده ، ويقوى بهم عهده ، ويبنى بسواعدهم أسباب النصر ، ويضمهم الى أشقائهم المصريين ، فيغنونه عن الحاجة الى جنود الأرناؤود الذين ما فتئوا يزرعون الأشواك فى طريقه ، بالشغب والتمرد بين الحين والحين .

أم كان همه الأول والأكبر أن يضمن الهيمنة على مصر والسودان والحبشة وجزيره العرب ، وهى تضم البحر الأحمر فيما بينها ، فتتكون منه بحيرة مصرية لا يشارك فيها أحد ، وبذلك يملك الطريق الى الشرق ، ويسيطر على التجارة الدولية بين الشرق والغرب ، ويملك سرّة العالم .

أم أن محمد على قد أدرك منذ أكثر من قرن من

الزمان أن مصر والسودان كلٌّ واحد ، لا يستغنى بعضه عن بعضه ، فلا حياة لمصر بغير السودان ، ولا حياة السودان بغير مصر ، أو كما قال شاعرنا الكبير شوقى بك :

فمصر الرياض وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه ... كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه ... عشيرة مصر وجيرانها

لقد كان كل من هذه الأسباب كافيا وحده لأن يدفع محمد على الى فتح السودان ، وإن قيل إن محمد على إنما قصد بتسيير هذه الحملة الى التخلص من بقية جنود الأرناؤود المشاغبين ، بعد أن تخلص من جزء كبير منهم فى فتح الحجاز ، وإن قيل إن العذر الذى أبدى تبريراً لإرسال جيش مصر الى الجنوب هو على ماقيل رد إهانة وجهت الى محمد على من سلطان سنار ، فإن محمد على لم يكن يبدى بواطن سياسته ، ويستعين بالكتمان على تحقيق أمجاده ومفاخره .

وعلى كل حال لم ينتصف عام ١٨٢٠ حتى كان قد

نحو ٥٠٠٠ جندى فى وادى حلفا ، آخر حدود مصر جنوبا .

وبعد أن نظمت هذه القوة مؤنتها وذخيرتها ، سارت تحت قيادة اسماعيل النجل الثالث لمحمد على « لكى يكتسب خبرة بفن الحرب والادارة » ، واجتازت الحدود المصرية ، ودخلت دنقلة بعد أن هزمت جيوشها هزيمة منكرة .

ومضت الحملة فى طريقها ظافرة منصورة حتى (كورتى) ثم (بربر) فدخلتها فى مارس سنة ١٨٢١ ، وبعد شهرين دخلت (شندى) ، وتابع الجيش الزحف جنوباً الى أن بلغ (حلفاية) الواقعة على مقربة من ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، فاحتلها ، ثم احتل (أم درمان) الواقعة على النيل الأبيض ، وظل الجيش يتوغل فى البلاد الى أن بلغ ملتقى النهرين حيث تقوم اليوم مدينة الخرطوم ، وكانت قبل الفتح محلة صغيرة لا تحتوى أكثر من عشرة بيوت من الغاب، ثم أنشئت بها المدينة المثلثة التى صارت عاصمة السودان ومبعث الحضارة والعمران فى أنحائه .

واتجه الجيش المصرى بعد ذلك إلى مملكة سنار فاحتل « ودمدنى »

من أهم مدنها ، ثم دخل سنّار عاصمة المملكة فى ١٢ يونيه سنة ١٨٢١ ، ودانت البلاد للحكم المصرى من جنوبى وادى حلفا إلى سنار.

هنا يحق لنا أن نقف على آراء المعاصرين والمؤرخين والمصاحبين للحملة فيما كتبوه . فيقول المسيو كايو الذى صحب الحملة فى سنار:

« ان الجيش الذى سار به اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق مات منه لغاية سبتمبر سنة ١٨٢١ ستمائة مقاتل ، ثم زاد عددهم إلى ١٥٠٠ فى اكتوبر ، وبلغ عدد مرضاه ٢٠٠٠ ، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم ، ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية ، أرسل اسماعيل إلى أبيه يشكو سوء الحال »

ثم قال : « وكانت حالة الجنود ، من جهة المأكل والملبس وقلة وسائل العناية ، تدعو إلى الاشفاق ، فقد كانوا يأكلون نوعا رديئا من الذرة يضر بصحتهم ، ثم ان ملابسهم بليت فلم يجدوا ما يقيهم من جو هذه الأصقاع ورطوبتها وكثرة أمطارها .

وكانوا إذا ناموا يفترشون الأرض فتصيبهم رطوبتها ، ولم يكن بالجيش أطباء ولا أدوية ، فكثر عدد المرضى ، وتفشت العدوى واشتدت وطأة الأمراض بالجنود فى سنار ، حتى لم يبق لدى اسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى ٥٠٠ ، وساءت حاله ، وظهرت بين الأهلين بوادر الانتقاض ، وراجت الاشاعات السيئة عن حالة الجيش فى سنار وكردفان ، فأخذ اسماعيل باشا يمنى الجنود بأن مراكب المؤونة والعتاد قادمة عن قريب من جهة شندى »

وليس أبلغ من هذا الوصف المبسط ، لحال تدعو إلى اليأس والرثاء ، فقد كان الجيش المصرى يواجه فى فتح السودان خصما قويا عنيدا ، وطقسا لم يألفه ونقصا فى المأكل ، وعدوا أشد بأسا من الحرب والقتال ، هو فتك الأمراض ، وانتشار الأوبئة والحميات التى حصدت طوائف الجنود ، بأسرع وأخطر مما تحصده المعارك ، كما أن ابتعاد الجيش عن قواعده وعن مصر كل هذا البعد السحيق ، فى بلاد شديدة الرطوبة كثيرة الأمطار ، جعلهم يقاسون من نقص الزاد ، وبلى الملابس ، وانعدام وسائل النظافة

والراحة ، مما هبط بقواهم النفسية ، ورماهم بالملل واليأس وضياع الثقة فى المجد وفى المفاخر.

وفى الوقت نفسه، انعكست هذه الحالة فى صورة واضحة ، تبدت للقبائل السودانية ، كما تبدّى لهم ضعف البقية الباقية من الجنود المصريين ، بحالتهم هذه وتعرضهم للموت والجوع فى كل يوم ، وهذه القبائل قد خضعت لهم أقوياء يكتسحون المواقع ، وعدتهم وعتادهم تبعث البهر فى القلوب ، أما وقد صاروا إلى غير حالة القوة والعدد والاستعداد ، فلم تعد لهم الهيبة التى تبقى على خضوع القبائل واخلاصها ورضاها بنتيجة الغلبة ، وآذن أن يرفع المغلوبون رؤوسهم ويستردوا الأرض التى فقدت من تحت أقدامهم ، فظهرت بوادر الانتقاض والتمرد ، ويوشك أن يهدم ما بنته هذه الشهور المضنية المريرة ، على أنقاض المتاعب والآلام والضحايا والدماء .

وكان الموقف يتطلب من محمد على انجادا سريعا حازما ، يعيد مياه النصر إلى مجاريها ، ويرد غائلة الفتن والقلاقل ويوقف بواعث الملل والضجر واليأس عند حدها .

فلم يكن الأمر إذن أمر ارسال مدد لحملة لم يبق من عددها إلا القليل، وانما كان أخطر من ذلك وأكبر.

كانت الحملة نفسها فى حاجة إلى امداد من الجنود ومن المؤونة ومن الذخائر ومن الملابس والأغطية ومن المعدات الطبية والأدوية والأطباء، ومن الرواتب لهؤلاء الجند الذين مضت عليهم أشهر لم يقبضوا مرتباتهم.

ولكن ما كانت هذه المعدات المادية وحدها قادرة على رفع الروح المعنوية التى هبطت إلى الحضيض، ويئست من النصر الحاسم على حرب العصابات وعوامل الطبيعة، وعلى المسافات الشاسعة التى لا يحدها طرف، ولا تبدو لها نهاية يقف عندها الزحف وتؤذن بالعودة إلى الوطن.

وما كانت هذه النجدات القادمة لتكفى لاخماد التحفز الذى انبعث فى صفوف القبائل المتمردة المنتقضة، وقد رأت الجنود تتهاوى وتتزايل أمام طبيعة الجو، وأمام فعل الزمان، وآلام البعد، واتساع المسافات.

رأى محمد على أن عليه أن يواجه هذه العوامل كلها

بعمل حاسم ، ويضربها جميعاً بحجر واحد ، فيكون سدا لهذا الفراغ كله ، الذى يوشك أن يقضى على كل ما قدم من الضحايا ، وما اجتيز من الصعاب ، وما فتح من الديار .

فكر ودبر ، فما اهتدى إلا إلى حل واحد وفكرة واحدة ، وهى أن يختار لهؤلاء الجنود ، بل للجيش المفقود ، قائدا يعيد إليه مكانته ، ويسمو بروحه المعنوية ، ويعيد الأمر إلى ما كان عليه ، بل يعيد النصر ، وقد ألف النصر . فلم يكن أمام محمد على غير ولده ابرهيم ، ابرهيم قاهر الحجاز وفاتحه ، والمتغلب على عوامل الطبيعة به ، ومنتزع النصر من بين المسافات والأبعاد والأجواء والأعاصير ، بل من بين دوافع الملل واليأس والهزيمة .

فقام ابرهيم على عجل ، لينجد اسماعيل الذى توقف عن الزحف قلقا على مصير البقية الباقية من جيشه ، ضعيف الأمل فى النجدة والانقاذ .

ولم يصحب ابرهيم إلا بعض الأطباء لمكافحة الأمراض وعلاج الجنود المرضى ، ولم يأخذ معه إلا المؤونة والملابس

للجنود .

ولكن المسألة لم تعد تقف عند حد الأطباء والأدوية والملابس والمؤونة ، فليس لهذا قوة فى ذاته ، انما هى فى حاجة إلى أمر أقوى وأجل خطرا من ذلك ؛ فما أحوجها إلى شخصية ابرهيم ، وتأثيرها على الجنود وعلى القبائل .

كان خبر قدوم بطل الحجاز ، وقاهر الوهابيين ، جديراً بأن ينعش الجيش ويبعث الأمل والشجاعة ، ويرد على الجنود قوتهم المعنوية ، ويقهر روح المقاومة لدى القبائل المتمردة ؛ وهو الذى كفلت له مواهبه تفانى الجنود فى محبته والانقياد له رغم كل الظروف ، وأهلته سمعته الحربية ، وقوة شكيمته وسياسته الحكيمة ، وقيادته الحازمة ،لأن تستسلم له قبائل الحجاز ، وتنضوى تحت لوائه .

فما كاد يصل ابرهيم حتى انتعش الجيش ، ونهضت روح الأمل ، واستقرت فتنة القبائل ، وكان لطلعته ولشخصيته ولحضوره الأثر المرجو ، الذى كان نقطة التحول الحاسم ، من الهزيمة والتشتت ، إلى النصر والفتح .

ووزع ابرهيم المؤونة والملابس على الجنود ، ودفع لهم رواتبهم المتأخرة ، وجاءت على أثره امدادات الجنود ، وتوطد مركز الجيش المصرى فى السودان .

وأخذ ابرهيم يدبر مع أخيه اسماعيل خطة فتح مابقى من السودان ، ويشد أزره ، ويبث فيه من شجاعته ، ومن حسن تدبيره .

فاتفقا على اقتسام الزحف ، وتوزيع الجيش إلى فرقتين ، فرقة بقيادة اسماعيل ، لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق ، لغاية اقليم فازوغلى ، والفرقة الأخرى بقيادة ابرهيم ، يخترق بها جزيرة سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ، ويمد فتوحات مصر الى أعالى النيل .

وبعد أن تمت معدات الزحف ، وأحكمت خططه ، ونظمت صفوفه ، تركا حامية من الجنود فى « سنار » ، وسار كل من الأميرين فى الجهة التى اعتزم فتحها .

ولكن ابرهيم مرض بالدوسنطاريا أثنـــاء الفتح ، ولم يتجاوز فى حملته جبل « القربين » فى وسط الجزيرة ، ولما

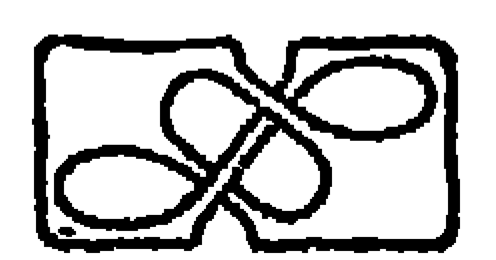
اشـــتدت عليه وطـأة المرض ، اضطـــطره أطباؤه إلى العودة إلى سنار ، ومنها إلى مصر ليعـــالج ويشفى ، وما كان ليفعل ذلك لولا أنه رأى الأمور استتبت وجرت فى مجراها ، وتباشير النصر تلوح وبعد أن رسم الخطة واطمأن لتنفيذهـا ورأى الجيش المصرى وقد التهب حماسا وهاج شوقا بالقتال والنصر العاجل .

ولم يترتب على هذه العودة أثر فى سير الفتوح ، فما كان ابرهيم قد ذهب إلى السودان ليحارب ويغزو ، فإن الحرب والغزو فى السودان كان أيسر وأهون من أن يقوم له بطـل محارب كابرهيم ، وانما قام ليحقق ماحققه فعـــلا ، من بث روح الشجاعة والاقدام فى جنود الحملة ، والقضاء على عوامل التردد والقلق واليأس ، وتسكين فتنة القبائل المترددة .

أما وقد نجحت مهمته كل النجاح وكتب للجيش المصرى أن ينتصر على طول طريقه ، وأن يسير بروح ابرهـــيم ، وعزيمة ابرهيم ، ووحى ابرهيم ، نحو توحيد وادى النيل ، فقد تحقق لمحمد على حسن اختياره وحسن ظنه بإبرهيم كلما

لاح شطب أو جد الجد .

ومن ذلك الوقت أخذت الفتوحات المصرية تمتد فى جوف السودان . فقد وصلت حدود السودان المصرى فى عهد محمد على ، شرقا إلى البحر الأحمر ، وجنوبا إلى جزيرة «جونكر» تجاه «غوندكرو» على النيل الأبيض ، وغربا شمل الحكم المصرى كردفان ودارفور .



الفصل الخامس

موقعة نافارين

الباحث المدقق فى حروب الجيش المصرى ، فى مستهل القرن التاسع عشر ، لابد أن يشعر أن هذه الحملات المسيرة من قطر إلى قطر ، لايمكن أن تكون وليدة الإرتجال ، أو عفو الخاطر ، أو من وحى الحوادث وحدها .

ويبدو جليا أن محمد على كانت له خطة مرسومة يتحذاها ، وضعها فى دقة واحكام ، وأسسها على بعد المطامح ، ورفعة المجد . وإذا كان الحظ قد أسعده ، بجعل المقادير تجرى بما يهيء له السبل إلى تحقيق خططه ، فلأنه قد سارع إلى انتهاز الفرص السانحة ، فسيرها إلى الخطوط المرسومة ، ونفذ بها أغراضه وغاياته .

فقد انتهز فرصة الحرب الحجازية فشرع فى بناء الأساطيل لحماية سواحله وحفظ ثغوره ، والسفن الكبيرة لنقل الحملة ومعداتها إلى الحجاز ، ورأى أن قرصان الوهابيين قد شنوا غاراتهم فى نواحى البحر الأحمر ، وهددوا بقطع المواصلات البحرية بين السويس وجدة ، فحشد فى البحر الاحمر عمارة بحرية تستطيع صد غارات القرصان ، ودفع عاديتهم .

وما كاد ينتهى من الحرب الحجازية حتى بادر فى حماس وسرعة إلى انشاء عمارة بحرية يختص بها البحر الأبيض المتوسط ، يبتاع لها السفن ويبنيها وينشئها ، ويمدّها بأقوى المعدات . وكان هذا غريبا من محمد على لو لم يكن يرمى إلى تحقيق هدف بل أهداف ، ويتوقع مفاجآت ومغامرات . ثم مايكاد يستكمل عدته البحرية ، حتى تتاح له حرب بحرية .

يتعذر أن ترى فى هذا كله محض مصادفة ، وإلا كانت مصادفة من أعجب المصادفات ، لايتصور العقل حدوثها بهذه الدقة وهذا التماسك . وانا لنرى أنها خطة مرسومة ، وضعها من يعرف طريقه ، ويمد نظره نحو الأفق ، فيسبق الحوادث

ويستعد لها ، ويعرف متى يبدأ ، وأين يسير ، وكيف ينتهى .

والمدقق فى تاريخ هذه الحقبة ، لايسعه إلا أن يرى أن محمد على باشـــا الكبير كان ينهج منهج الاسكندر الأكبر ، ويحيي امبراطوريته ، ويكونها فى الشرق وفى الشمال ، وان كان قد اختلف عن الاسكندر فى خط سير فتوحاته بالترتيب ، فقد اتفق معه فى الخطوط الرئيسية ، وفى تحديد رقعة الامبراطورية .

ويبدو أن خطة محمد على كانت تبدأ بالاستيلاء على جزيرة العرب ، ثم على المورة واليونان ، فيتكون منها ومن السودان كماشة قوية تهصر بلاد الشام فى يسر وبغير عناء ، ثم يقف أمام امبراطورية آل عثمان المتزايلة ، فيرث مجدها ويبنى عليه امبراطورية فتيـــة ، كما وقف الاسكندر فى وجه الامبراطورية الرومانية العجوز سواء بسواء .

شرع محمد على فى بناء السفن الحربية منذ سنة ١٨١٠ ، ويقول الجبرتى فى ذلك :

« وشرع محمد على فى انشاء مراكب لبحر القلزم ، وأرسل

المعينين لقطع أشجار التوت والنبق من الوجهين القبلى والبحرى وجلب الخشب من بلاد الروم، وجعل بساحل بولاق ترسانة ودار صناعة وورشات ، وجمعوا الصناع فعملوا أربع سفائن كبارا، إحداها تسمى الابريق، وسفنا أخرى لحمل الذخائر والبضائع » ألا ان هذا صنع الرجال ذوى الهمة والبأس يذللون الصعب فى تحقيق أغراضهم وتأدية رسالاتهم وبمثل هذا تمايز العقول.

ويقول سرهنك باشا فى كتابه «حقائق الأخبار» :

« انه لما لم يكن لمحمد على باشا فى ذلك الوقت عمارة بحرية بالبحر الأحمر، أصدر أمره بانشاء ١٥ سفينة بالبحر المذكور وأمر بقطع ما يصلح لبنائها من أشجار التوت والنبق وغيرها من الوجه القبلى ومن الوجه البحرى ، وعين المأمورين لذلك، ولما تم قطعها أحضرت بساحل بولاق، وكان قد أنشأ هناك دار صناعة ومعامل مختلفة ، فهذا ابتداء انشاء ترسانة بولاق سنة ١٢٢٤ هجرية »

ثم يقول بعد ذلك : « وشيد محمد على بالسويس مبانى

لصناعة السفن ، أنشأ فيها أربع سفن جسيمة من نوع الابريق (وهى سفن بساريتين وقلوع مربعة) وأنشأ احدى عشرة سفينة أخرى من نوع السكونة (وهى سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع مخروطية)» .

ويقول الأمير عمر طوسون فى كتابه «الجيش المصرى البحرى والبرى» :

« ولما فتح محمد على الأقطار السودانية ، وأسس مدينة الخرطوم أنشأ فيها دار صنعة أخرى كدار صنعة بولاق وكان الغرض الأول من انشاء السفن فيها نقل الجنود من مكان إلى آخر فى هذا القطر الواسع الأرجاء ، وكانت مع ذلك مسلحة بمعدات القتال ، والخلاصة أن هذا العاهل العظيم أنشأ أولا دار صناعة بولاق ، ثم دار صناعة السويس ، ثم دار صناعة الخرطوم » .

ثم يقول ان السلطان محمود كان قد أهدى محمد على سفينتين حربيتين ، فعزم على تكوين أسطول بالبحر الأبيض

المتوسط ، تكون هاتان السفينتان نواة له ، «ولما لم يكن لمصر حينئذ إلا دور الصناعة التى ذكرناها ، وهى لم تكن مستعدة لصنع السفن التى من الطراز الحديث ، اضطر أن يتفق مع تجار الافرنج على ابتياعها له من مصانع أوربا ، فأتوا له بسفن من نوع الفرقاطة والقرويط والابريق ، صنعت بتريستا ومرسيليا وليفورن وجنوى ، وانتخب له القواد البحريين من سفن التجار الترك والسكندريين ، وأخذ ملاحيها من المتطوعة، وأحضر لهم المعلمين من الفرنسيين والطليان، لتعليمهم وتدريبهم» .

هذا كان الاستعداد الحربى البحرى فى مصر على قدم وساق ، وعينا محمد على ترقبان أصبع روسيا فى بلاد البلقان واليونان .

ففى أوائل القرن التاسع عشر ألفت جمعيات ثورية اتخذت مركزها فى الروسيا والنمسا ، وأهمها جمعية كبيرة تسمى « هيتريا » تألفت فى سنة ١٨١٥ لتحرير اليونان من الحكم التركى ، وبث روح الثورة والتمرد فى أنحاء البلاد . وكان الاسكندر الأول قيصر روسيا يرعى هذه الحركة ويؤيدها ويستوزر بعض زعمائها ، واستخدم فى الجيش الروسى ضابطا يونانيا يسمى (اسكندر

ابسلنتى) وجعله ياوره ورسوله إلى الثوار .

وظلت هذه الدسائس الروسية تلعب بالحركة الثورية اليونانية وتقيمها على أساس من التكتم والانتشار الدفين حتى سنة ١٨٢١ ثم شبت الثورة فى مارس سنة ١٨٢١ بمدينة « ياسى » من أعمال ولايتى البغدان والأفلاق (رومانيا) ، وقد اختيرت هذه الجهة للبدء بالحركة ، نظرا لقربها من روسيا حتى تمد الثورة بجيوشها .

وفى ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ اشتعلت نار الثورة فى شبه جزيرة المورة ، وقامت على أساس دينى ، يتزعمها أحد الأساقفة ، وانتهز الثوار فرصة الفتنة التى دبرها على باشا والى يانينا ، وانشغال الدولة التركية فى اخماد النار ، فرفع الثوار اليونانيين راية العصيان وأخذت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على المراكب التركية ببحر الأرخبيل ، وتأسرها وتدمرها ، وتوقع بركابها قتلا وأسرا ونهبا . وكان يوجد نحو ٢٠ ألفا من المسلمين فى أنحاء اليونان فأعمل الثوار فيهم السيف وأبادوهم عن بكرة أبيهم ، وقتلوا فى تريبولتسا ما لا يقل عن ٨٠٠٠ من رجال المسلمين ونسائهم وأطفالهم .

ولما أخمد الجيش التركى ثورة على باشا فى يانينا زحف على

المورة ، إلا أنه دارت عليه الدائرة وتضعضعت قواه وظهر عليه الثوار ، وازدادوا جرأة بانتصاراتهم ، فأحرقوا كثيراً من السفن التركية ، وعاثوا فى البحر فسادا ، وأحيوا عهد القرصنة من جديد .

وبينما الحرب سجال بين الجيش التركى والثوار اليونانيين ، كان محمد على يرقب الحالة ، ويتتبع أخبارها وأطوارها . وكان على ثقة أن لامناص من استنجاد الباب العالى به لاخماد العصاة وادحاض الثورة .

وكان ذلك قياسا على دعوة السلطان له إلى اخماد الفتنة فى جزيرتى كريت وقبرص ، فأخمدها ، واحتل الجزيرة الأولى فى سنة ١٧٢١ واحتل الجزيرة الثانية فى سنة ١٨٢٢ وأزال وقتئذ عن صدر تركيا الكابوس ، ورد لها كرامتها ، ودحر لها اعداءها والخارجين عليها .

ومما يدل على أن محمد على كان ينتهز الفرصة لتحقيق خطة معينة ، أنه ما كان يلبى من دعوات الباب العالى إلا مايتفق مع مرماه ويتضمنه برنامجه ، فتراه فى سنة ١٨٢٣ لما كلفه الباب العالى إيفاد جيش بقيادة ابرهيم لمقاومة الفرس ، وكان هؤلاء

يحاربون الترك ، ويهددون بغداد وأرضروم ، اعتذر عن قبول هذه المهمة وتنحى عنها متلمسا مختلف الأسباب ، لأن بلاد الفرس لم تكن فى البرنامج الذى رسمه ، وآلى أن يحققه ، أما المورة وسوريا فكانتا ضمن هذا البرنامج فى منطقة طموحه وتخيلاته .

ولذلك أخذ يسعى من سنة ١٨٢١ فى الأستانة ليحصل على فرمان يوليه على المورة وعلى سوريا ، فكان يوزع الأموال الطائلة على كبار رجال الدولة التركية ، ليكونوا أعوانه فى تحقيق هذه الأمنية . وظل محمد على فى أمل يترقب .

وظل السلطان يتردد فى إجابة مطالب محمد على خشية اتساع سلطانه . ولكن لما وقعت الحرب ، ورأى السلطان هزيمة جيشه ، لم ير مندوحة من الاستعانة به ، فعينه والياً على المورة فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ ، وأمره باخماد حركة عصاتها .

ولم يكن من أغراض محمد على ، محو اليونانيين أو المسيحيين أو إبادة شعب المورة ليبنى على أنقاضه دولة إسلامية ، كما يزعم كتاب الإفرنج الذين يتقولون والمنطق يكذبهم ، فمحمد على

أبعد نظراً من ذلك ، وهو أدرى بما يجره مثل هذا التعصب من تألب الدول وهو فى حاجة إلى صداقتها ، والاستعانة بها فى نهضته وتأسيس ملكه .

وانما كانت أغراضه سياسة محضة ، هى أن يظهر للعالم مدى قوته الفتية وتفوقه على الباب العالى ، وليفوز فى الوقت عينه بتنظيم المورة والاستفادة من نشاط اليونانيين فى خدمة مصر ، وليبسط حكمه على جنوب أوربا ، فيحوّل شرق البحر الأبيض المتوسط الى بحيرة مصرية .

يقول (لوفرن) : «وعلمت من حديث لى مع (سيف) أن ابن محمدعلى (أى ابرهيم باشا) كان مزوداً بأمر من والده بأن يسجل خطواته الأولى فى المورة بأعمال تنمّ على الحلم والتسامح ، لكى يشعر رعاياه الجدد بأن غرضه ليس الحرب بل التهدئة . . . وقد هيمن التسامح بل الكرم على مسلكه ، ومما يعزز هذا الرأى ما رأيته فى سهول (موتون) فقد رأيت زراعاً يونانيين يقبلون يد ابرهيم على مرأى منى فكان يصرفهم بقوله : انشروا فى كل مكان أنى والدكم وأن

شدتى لن تقع إلا على العصاة .

بل إن التجار اليونانيين كانوا منهمكين فى إنشاء سفن لحساب محمد على ، وابتاع من الثوار اليونانيين أنفسهم خمس سفن أخرى .

وآخر عبارة قالها محمد على لابرهيم عند إبحاره إلى المورة كانت : (ليكتب الله لك النصر ياابنى ، فإذا كتبه لك فإنى أسأله تعالى أن يبث فيك فضيلة الرفق . كن عدواً مع الأعداء ولكن كن حليما ومتسامحاً مع الضعيف) .

وبهذه النصيحة الغالية والتوجيه السديد أقلع ابرهيم باشا من الاسكندرية فى يونيه سنة ١٨٢٤ على رأس أسطول مصرى يتألف من ٦٣ سفينة حربية و ١٠٠ سفينة لنقل الذخيرة والجنود الذين كان عددهم يتراوح بين ١٦٠٠٠ و ١٧٠٠٠ جندى .

ولم تقصد العمارة المصرية إلى شبه جزيرة المورة رأساً ، بل اتجهت إلى مياه رودس ، ومنها إلى خليج (ماكرى) على شاطىء الأناضول ، لتلتقى بالأسطول التركى الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الأرخبيل .

ولما وصلت العمارة الى خليج (ماكرى) أنزل ابرهيم باشا جنوده إلى البر ، وتهيأ الاقلاع بأسطوله ليتصل بالأسطول التركى ، الذى جاء إلى الدردنيل بقيادة خسرو باشا ، فالتقى به فى ميناء بودروم (على شاطىء الأناضول) فى أواخر أغسطس .

هاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان ، أما ابرهيم باشا فقد صمد للسفن اليونانية حتى اضطرها الى التقهقر (سبتمبر سنة ١٨٢٤) .

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانياً ، وسارتا إلى مياه جزيرة (مدللى) ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل ، ورجع الأسطول المصرى جنوباً ، فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة (سانز) واشتبكت به فى معركة شديدة ، أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين (فى أكتوبر سنه ١٨٢٤) ثم عاد ابرهيم بأسطوله إلى ميناء بودروم .

وكان للثوار اليونانيين مهارة كبيرة فى ركوب البحر فهم قرصان ورجال البحر ومحاربون من زمان طويل ، وقد حولوا معظم مراكبهم التجارية إلى سفن مسلحة أعدوها لغزو السفن التركية ، وكان أشدها فتكا السفن المعروفة بالحراقات ، فإنها كانت قد تقذف بنفسها على السفن فتحرقها بنارها ، وقد ضعضعت قوى الأسطول التركى وأحرقت بارجة الأميرال وسفينتين أخريين .

وأدرك ابرهيم باشا من كل هذه الوقائع أن هزيمة اليونان لا تكون على ظهر البحر ، فسفنهم الكثيرة منبثة فى نواحيه ، وأن خير وسيلة للغلبة عليهم ، هى القضاء عليهم براً فى شبه جزيرة المورة ، فرجع أدراجه إلى ميناء (مرمريس) جنوباً ، ثم أقلع الى جزيرة كريت فى ديسمبر سنة ١٨٢٤ ، ورسا بالعمارة المصرية فى خليج السودة ، ووقف يتحين الوقت المناسب للاقلاع الى ساحل المورة .

يقول المسيو (دوان) فى كتابه (فرقاطات محمد على الأولى) :

« مضت خمسة أشهر على مغادرة العمارة المصرية ، خمسة أشهر

تقضت فى جهود شاقة ، ومتاعب لا هوادة فيها ، ومخاطر تتجدد كل يوم . وان ما أبداه ابراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش لمما يسترعى النظر ، فان قيادة أسطول بحرى ، تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسهل الاضطلاع بها ، وان ابرهيم فى قيادته ماتى سفينة تقل نحو عشرين ألف رجل ، من جنود وبحارة ، قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل ، حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٢٨٠٠٠ . وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين أسطول منظم ولا تقاليد بحرية ، ولا هيئة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على ابرهيم باشا أن يبتكر ، وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية ، وسفن للنقل ورجال وعتاد ، وأن يروض نفسه على ركوب البحر ، والقتال بين أمواجه وأهواله إذا تذكرنا كل ذلك ، فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى حشدها أمكنها أن تبقى

خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشـــديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة، دون أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضع نقالات . لاشك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة ابرهيم باشا وعلو همته ، وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ، ورباطة جأشه فى مغالبة المحن ، تدل على شجاعة كبرى ، لايسع أى انسان إلا أن يبادر بالاعجاب بها » .

مكث ابراهيم فى جزيرة كريت يتحين خلو البحر من السفن اليونانية ليقلع إلى شواطىء المورة ، لينزل جنوده إلى البر وما لبثت أن تهيأت له الفرصة ، إذ وقع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر رواتبهم ، وتنازع رؤساء الحكومة الثورية ، فأبى البحارة الاستمرار فى القتال . وعلم ابرهيم باشا بذلك ، فانتهز الفرصة السانحـــة ، وأقلع بعمارته من « خانيا » إلى ميناء « مودون » جنوبى المورة ، وأنزل جنوده إلى البر فى فبراير سنة ١٨٢٥ .

وألفى القوات التركية بالمورة فى أسوأ حال ، لغلبة الثوار عليهم براً وبحرا ، ولم يبق تحت يد الترك سوى « مودون » التى نزل بها ابرهيم باشا ، وميناء « كورون » وكان يحاصرهـا اليونانيون حصاراً شديدا .

وأقام ابرهيم باشا فى « مودون » ريثما دبر شئون جنده ، ورسم خطة الزحف على داخل البلاد . ثم سار منها ، مع نخبة من جيشه ، قاصدا « كورون » لنجدتها ، فغلب اليونانيين، وفك الحصار عن الميناء ، وأمـد حاميتهـا بالمؤن وبالذخيرة والسلاح .

ثم أنفذ فرقة من جيشه لضرب الحصار على مدينة «نافارين» التى كان الثوار قد استولوا عليها ، وامتنعوا بها ، وكانت من أمنع مرافع المورة ، فحاصرها برا وبحرا .

واشتدت مقاومـة اليونانيين ، وتـكبـد المصريون أهوالا شديدة فى حصار المدينة ، فقام ابرهيم مع بقية جيشـه من « مودون » ، ليشدد الحصار على نافارين ، فواجهته فى طريقه اليها فرقة من اليونانيين يبلغ عددها ٢٥٠٠ ، هبـوا لنجدة

حامية نافارين فهزمهم ابرهيم باشا ، وأسر قائدهم ، وبدد شملهم .

وشدد الحصار على المدينة برا وبحرا ، وكادت تشرف على التسليم ، لولا قدوم جيش من متطوعى اليونانيين ، بلغ ٩٠٠٠ مقاتل ، جاءوا لرفع الحصار عن المدينة ، ومحاولة قهر الجيش المصرى العنيد .

وهنا تبدو شجاعة القائد وبسالته وحنكته وحسن تدبيره فقد صف ابرهيم رجاله على ترتيب محكم ، ولما أصبح الأعداء على عشرة أميال ، ركب المدافع القوية حول المدينة ، وترك جزءا من جيشه يتولى حصارها ، وقام ببقية الجيش والتقى باليونانيين على مقربة البلد ، فهجموا عليه هجوما عنيفا مستميتا ، أما ابرهيم فقد أمر جنوده بالثبات فى مواقعهم دون أن يطلقوا النار حتى تصدر الأوامر بذلك .

ولما صار العدو على مائة متر ، قابله الجنود المصريون باطلاق النار دفعة واحدة ، فحصدوا الصفوف الأمامية حصدا وألقوا الرعب فى قلوب المهاجمين ، واختلت صفوفهم ، ولم

بمضى قليل حتى قتل معظم جنود اليونانيين ، وتشتت الباقون فى الجبال ، وفى أنحاء اليونان ، ونجحت خطة ابرهيم نجاحا رائعاً .

كانت هذه الواقعة نصرا مبينا للجيش المصرى ، انتهت بسحق الجيش اليونانى ، وغنم المصريون فيها غنائم كثيرة ، وأسروا عدداً كبيرا ، بينهم كثير من الضباط ورؤساء الجند الذين كان عليهم اعتماد اليونانيين فى تنظيم حركاتهم الحربية .

وكان مسلك الجنود فيها حيال أعدائهم مسلكا انسانيا رائعا ، فلم يرتكبوا أية فظائع كالتى جرت على ارتكابها الجيوش الفاتحة ، وأحسنوا معاملة الأسرى اليونانيين ، وكان أطباء الجيش المصرى يعنون بتضميد جراحهم ، تنفيذا لأوامر ابرهيم باشا . وأين هذا مما قاله المفترون من المؤرخين على محمد على من أنه كان يهدف إلى ابادة المسيحيين ؟

وتمكن الجيش المصرى بعد هذه الموقعة من تشديد الحصار على « نافارين » براً ، ولكن المدينة كانت واقعة على البحر ،

فكانت تأتيها المؤن والمدد من هذه الناحية ، فرأى ابرهيم باشا أن لاسبيل إلى منع وصول المدد اليها إلا إذا استولى على جزيرة اسفاختريا التى تحجب المرفأ ؛ ليتمكن من تركيب مدافع بها واغلاق مدخل الميناء ، ومنع دخول المدد اليها .

وكان اليونانيون يعرفون ما لهذه الجزيرة من الأهمية ، فحصنوها وأقاموا بها عدة بطاريات من المدافع ؛ وعززوها بقوة كبيرة من شبانهم ومقاتلتهم .

إلا أن ابرهيم صمم على احتلال الجزيرة ، وأرسل اليها فى مايو سنة ١٨٢٥ حملة من الجيش المصرى ، فما صارت السفن المصرية على مرمى المدفع ، حتى أطلقت عليها قلاع العدو قنابلها شديدة عنيفة ، فلم تتزلزل قلوب المصريين ، وأجابوا بضرب المدافع من السفن ، ونزل الجنود البريون فى الزوارق ، وقصدوا الجزيرة تحت وابل من القنابل ، فتمكنوا من الوصول إلى البر ، وترامى الفريقان باطلاق البنادق ، ثم هجم المصريون هجوم الأبطال المغاوير ، وكان عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، فاحتلوا الجزيرة عنوة ، بعد أن دافع

اليونانيون عنها دفاعا شديدا ، ولكن المصريين غلبوهم بحسن النظام والشجاعة ، وتنفيذ خطط ابرهيم المحكمة ، فارتفع العلم المصرى فوق استحكامات الجزيرة .

وأمكن للجيش المصرى أن يشدد الحصار على نافارين برآ وبحرآ ، وأفسد على اليونانيين كل محاولة لامـــداد المدينة المحصورة ، بالرجال والعتاد . ودب اليأس فى قلوب الجنود المحصورين ، فطلبوا من ابرهيم باشا أن تسلم اليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة ، على أن يؤمنهم على حياتهم .

فاستجاب ابرهيم لهذا الطلب فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ ، ودخل المدينة ظافرا منصورا . وكان لسقوطها أثر بالغ فى الموقف الحربى ، ونقطة حاسمة فى سير المعارك المقبلة ، لأن نافارين ومودون وكورون قواعد حربية هامة يسيطر منها الجيش على بلاد المورة .

الفصل السادس

فتح تريبوليتزا وميسولونجي

في خلال القتال تمكنت السفن اليونانية التي كانت بميناء نافارين من الافلات من الحصار ، إلا سفينتين وقعتا في أسر المصريين ، وانضمت إلى السفن اليونانية في بحر الأرخبيل ، واشطت في محاربة العمارة المصرية .

وقد تمكن الأميرال اليوناني « ميوليس » من الاقتراب من ميناء « مودون » في ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ ، واستطاعت الحراقات اليونانية أن تشعل النار في السفن المصرية ، الراسية في خارج الميناء .

وكانت الريح شديدة ، فاندلعت النار إلى باقى السفن ، فتعذر أطفاؤها ، ولم ينج بحارتها إلا بعد عنــاء شديد . وهبت الحريق بكثير من السفن ، وامتدت إلى المدينــة فالتهمت جزءا منها ، وامتدت إلى مخازن البارود فنسفتها وهدمتها وخربت الأماكن المجاورة لها .

وقد وقعت هذه الحادثة أثناء حصار نافارين ، فلم تفت فى عضد ابرهيم باشا ولم تثنه عن عزمه ، ودأب فى القتال إلى أن كسب الموقعة الأخيرة .

وفى غضون هذه الحرب أيضا استهدفت السواحل المصرية لقرصنة السفن اليونانية التى أحفظها اشتراك مصر فى الحرب ، فأقبلت ثلاث حراقات إلى بوغاز الاسكندرية ، ودخلت واحدة منها إلى الميناء ووصلت أمام طابية صالح ، وأشعلت نارها تريد احراق الأسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها ، وهى الطريقة التى اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها كثيرا من السفن العثمانية .

ولكن حراس القلعة بادروا إلى اطلاق المدافع على السفينة

اليونانية ، وبادرت السفن الحربية المصرية إلى ارسال بعض قواربها المسلحة بالمدافع ، فهاجمتها وأخمدت نارها ، وبرهنت فى تلك الحركة على مهارتها ويقظتها . فلما رأت السفينتان اليونانيتان الأخريان ماحل بالأولى لاذتا بالفرار .

ولما سقطت « نافارين » اعتصم الثوار اليونانيون ، وعددهم ٥٠٠٠ بقيادة « بيتروبك » فى ميناء « كلاماتا » ، وكانوا من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة وشدة البأس ، وأجمعوا أمرهم على الاستبسال فى مقاومة الجيش المصرى .

مضى اليهم ابرهيم باشا ، ولما وصل الى « كالاماتا » اشتد القتال بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين ، وانتهى بهزيمة اليونانيين الشجعان ، ودخل الجيش المصرى عنوة مدينة « كالاماتا » فاتحا منصورا .

واحتل ابرهيم باشا أيضا القلاع والقرى الصغيرة القريبة من كالاماتا ، بعد مقاومات موضعية ، أودت فيها حاميات تلك القوى قتلا وأسرا . وفتح كذلك « أركاديا » الواقعة على البحر ، فى غربى المورة .

وكانت « تريبوليتزا » عاصمة المورة ، والواقعة فى قلب شبه الجزيرة ، معقلا منيعا للثوار ، اتخذوا منها مثابة المقاومة الأهلية ، نظراً لمنعة موقعها ، وصعوبة الوصول اليها ، فقرر ابرهيم الزحف عليها للقضاء على الثورة فى معقلها الحصين .

فشرع فى اجتياز جبل « تايجنت » . وكان اجتياز مضايق هذا الجبل الوعر من أشق الأمور على الجيش المهاجم ، لوعورة الطريق الذى تحف به الأخطار من كل جانب .

والتقى ابرهيم عند مضيق كورشيكا بقوات الثوار ، يقودها الثائران الشهيران ، «كولو كترونى » و « بتراكو » ، وكان هدفهما أن يسدا الطريق امام ابرهيم باشا ، ويحميا بجموعهما موقع « تريبوليتسا » .

ولكن الجيش المصرى قهر هذه القوات ، وقتل منها نحو خمسمائة ، ودخل مدينة « تريبوليتزا » فوجدها خالية من السكان إذ كان قد أخلاها أهلها ، وأضرموا فيها النار قبل رحيلهم ، واعتصموا بالجبال .

وتابع ابرهيم زحفه لمطاردة القوات اليونانية ، فقصد وادي

أرجوس ، وقهر حشدا من الثوار بقيادة ابسلانتى . وفى ٢٧ يوليو سنة ١٨٢٥ عرج على وادي « اسكونيا » وكان الثوار يرابطون فى معاقله ، فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ، ثم احتل « باتراس » .

وبذلك أصبح شبه جزيرة المورة فى قبضة الجيش المصرى ، عدا مدينة « نوبلى » عاصمة الحكومة الثورية .

وبينما كان ابرهيم باشا يتأهب لحصار « نوبلى » جاء نبأ من رشيد باشا ، قائد الجيوش التركية ، يطلب منه النجدة والمدد لمعاونته فى حصار (ميسولونجى) .

فعدل ابرهيم عن حصار « نوبلى » وولى وجهه شطر (ميسولونجى) .

وكان رشيد باشا يحاصر هذه المدينة منذ مدة طويلة دون أن ينال منها منالا ، وكان موقعها منيعاً لوقوعها على خليج (باتراس) واتصالها بالبحر ، فكان يمكن امدادها بحراً ، ولم تستطع العمارة التركية أن تحصرها من هذه الناحية ، لأن السفن والحراقات اليونانية ، بقيادة الأميرال (ميوليس)

كانت تمنعها من الاقتراب .

ولما عجز رشيد باشا عن متابعة حصار ميسولونجى ، واستعصت عليه بعث يستنجد بالجيش المصرى ، فترك ابرهيم ببلاد المورة مايكفيها من الحاميات ، وقام من فوره فى عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان ، إلى باتراس ، وعبر الخليج وسار بحراً إلى مدينة ميسولونجى فى فبراير سنة ١٨٢٦ .

واشترك مع رشيد باشا فى الحصار . وفى بادىء الأمر سار الحصار على خطة رشيد باشا ، فباءت بالفشل والهزيمة وما كان فى مستطاع ابراهيم أن يتحاشى هذه الخسائر ، لأنه إنما جاء إمداداً لجيوش رشيد باشا ، وكان عليه أن يسير على خطة القائد التركى ، فهو رئيس الحملة وصاحبها وقائد جيوش السلطان .

أما وقد ألقت الحرب هذا الدرس القاسى ، فقد طرح ابرهيم خطط رشيد باشا ، ورسم لنفسه الخطة التى نجحت فى حصار نافارين ؛ فشدد الحصار فى ميسولونجى براً وبحراً ، واحتل الجزر الواقعة على مدخل الميناء ، وحصنها ليمنع

ورود المدد بحراً ، كما فعل فى نافارين .

وقد أراد ابرهيم بادىء الأمر أن يتفادى أهوال القتال واهراق الدماء ، وطلب من المدينة التسليم ، فأبى أهلها ، وأجمعوا أمرهم على المقاومة حتى آخر نفس ، وحتى آخر رصاصة .

وجمعوا جموعهم ، وقاموا بهجوم عظيم فى ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٢٦ ، تحت جنح الظلام ، وفى هدوء وسكون ، إلا أن الجيش المصرى كان متيقظاً لكل بادرة ، ولم يكن ليتراخى له جهد ليلا أو نهاراً ، فقابلهم بنار كالصواعق ، حصدت صفوفهم حصداً ، فانقلبوا على أعقابهم فى غير انتظام والمصريون فى أعقابهم ، يعملون فيهم السيف والنار فقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين البواسل ، وأبوا حتى هذه اللحظة أن يسلموا للفاتح العظيم ، ولكنهم شعروا أن الموت ملاحقهم والهزيمة محيقة بهم وأن خيراً لهم أن يموتوا شرفاء يحفظ لهم التاريخ صحيفة بيضاء وهم

أموات بعد أن عجزوا عن تسطيرها بالنصر وهم أحياء ، فاحتموا في مستودع للذخائر ، واتفقت كلمتهم على الموت دون التسليم ، وأشعل رئيسهم النار في البارود ، فانفجر ، وخر المكان على من فيه فقتلوا جميعاً .

وكان لهذا الحادث أعمق الأثر في نفس ابرهيم ، وأعجب أشد العجب بهذه الروح العالية ، ولا عجب فالبطل الشجاع يقدر البطولة والشجاعة في الخصم والغريم ، كما يقدرها في الصديق الحميم .

الفصل السابع

هزيمة في طياتها عظمة ومجد

بعد كل هذه الانتصارات الساحقة التى أحرزها الجيش المصرى ، ساءت حالة الثورة اليونانية كل سوء ، ولم يبق فى أيدى الثوار سوى مدينة (نوبلى) فى بلاد المورة و (أثينا) فى الأتيك ، وتمركزت قوة الثورة فى جزيرتى (هدرا) و (اسبتزيا) من جزر بحر الأرخبيل .

وبلغ من يأس الثوار أن عاثوا فى البحر فساداً ، وأمعنوا فى القرصنة ، وتحول الأسطول اليونانى ، بعد ما أبداه من البسالة والمهارة فى بادىء الأمر ، إلى عصابة لصوص وقرصان ، غايتها سلب البواخر ونهبها ، أكثر من القضاء على الأتراك .

فطلب ابرهيم باشا ، بعد سقوط ميسولونجى إمداده بحملة جديدة ، للقضاء على آخر معقل للثورة اليونانية .

فأعد له محمد على مدداً من عدة آلاف من الجنود احتشدوا فى الاسكندرية ، واجتمع بمينائها معظم الأسطول المصرى ، وكان قد عاد من مياه اليونان لإصلاح ما عطب من سفنه ، والعمارة التركية التى كانت قد جاءت لنفس الغرض ، وانضم إليهما بعض السفن الحربية الجديدة التى ابتنيت فى ثغور مارسيليا وليفورن وفينيسيا .

فكانت الأسكندرية فى أبريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة ، برية وبحرية ، تستعد للاقلاع إلى ميـــاه اليونان للقضـاء على آخر معقل للثورة فى جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء توبلى .

فكانت بداية النهاية ، والنهاية التى تعلن عن نتيجتهـــا الحاسمة ، وتنبيء بالنصر المحتوم ، مكفولا للقوات المصرية الباسلة .

وكانت الدعايه الروسية قد أثارت العالم الأوربى ، ووجهت

عطفه وعواطفه إلى اليونان ، متخذة فى ذلك سبلا شتى ، وبلغ من نجاح هذه الدعاية أن استثارت طائفة من أقطاب الشعراء والأدباء كاللورد بايرون ، وفيكتور هوجو ، وشاتوبريان ، وغيرهم ؛ فهبوا يستصرخون الرأى العام الأوربى ، ويضربون على الوتر الدينى الحساس لتوجيه ميول الأفراد والشعوب والحكومات فى أوربا إلى نجدة اليونانيين باعتبارهم مسيحيين تارة ، وباعتبارهم ذوى مدنية قديمة ، وبلغ باللورد بايرون انتصاره لهم أن تطوع فى صفوفهم ، ومات فى ميسولونجى سنة ١٨٢٤ .

ومع ذلك فاننا نأخذ من الأوربيين أنفسهم شاهدا عليهم .

يقول هنرى دودويل أستاذ التاريخ بجامعة لندن ، فى كتابه عن «محمد على» : «ان الباعث الحقيقى الذى دفع الدول إلى تقرير التدخل فى النزاع لم يكن منشؤه أراجيف محبى الانسانية ولا ما ارتكبه القرصان اليونانيون من الجرائم والفظائع ، كلا ، بل كان مرده إلى ما لروسيا من مطامع سياسية تبتغى تحقيقها ، فان الامبراطور اسكندر كان ينظر دائما إلى حمايته الطبيعية للكنيسة الأرثوذكسية ، باعتبارها خير وسيلة للتدخل

فى الشئون التركية ».

على أن العداوة القديمة بين تركيا وروسيا أمر لا يحتاج إلى اثبات. وعلى كل حال فان روسيا لما رأت أن الثوار الذين إحتضنتهم وسيرتهم قد باءوا بالفشل، ثم انقلبوا على أغراضهم نفسها، وأن الدول التى استثارتها إلى حماية الثوار اليونانيين لم تر محـلا للمخاطرة بنفسها مع هؤلاء، وكانت تعمل جاهدة على أن تنجح دسائسها الخفية، وتدابيرها المستترة، فلم يكتب لها شىء من النجاح، وآذنت الحالة أن تصير إلى النقيض مما أرادت.

فاضطرت الروسيا إلى أن تظهر سافرة فى الميدان، وأن تحقق علنا ما عجزت عن تحقيقه سرا، وكان قد تولى عرشها القيصر نيقولا الأول خلفا للاسكندر فى ديسمبر سنة ١٨٢٥؛ فاعتزمت أن تتدخل بمفردها فى اليونان.

وهنا تلعب السياسة لعبها الخطير، فما كادت الروسيا تعتزم ما اعتزمت، حتى خشيت انجلترا أن تنفرد روسيا بالتدخل، فيقوى نفوذها فى البلقان والشرق، ويعلو على نفوذ انجلترا، فأوفدت اليها الدوق ولنجتون سفيرا، لتوحيد أغراض الدولتين،

وعقدتا اتفاقا مبدئيا فى ٤ ابريل سنة ١٨٢٦ ، يرمى إلى تخويل اليونان استقلالها الداخلى ، مع بقـــاء السيادة التركية ، ودفنت روسيا وانجلترا أحقادهما المستعرة ، فى سبيل السياسة وفى سبيل القضاء على العدو المشترك .

ثم سارعت فرنسا بالانضمام إلى هذا الحلف ، ونسيت هى الأخرى ثاراتها لدى انجلترا ، وتجـــددت المفاوضات بين الدول ثم أسفرت عن ابرام « معاهدة لوندرة » فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ ، وهى المعـاهدة التى اتفقت فيها كل من انجلترا وفرنسا والروسيا على التدخل بين تركيا واليونان ، مع بقاء السيادة التركية عليها ، وقضت بأن تطلب الدول من الجـانبين وقف حركات القتال تمهيدا للوساطة بينهما .

وكان سفراء الدول الثلاث قد تقـدموا إلى الباب العـالى من قبل بالتماسات لوقف القتـال ، فـكان يجيبهم فى كل مرة بأن الثورة اليونانيـة مسألة داخليـــة بحتة ، ليس للدول الأوربـية قانونا أن تتدخل فيها .

ثم جاءت هـذه المعاهدة ، فـكانت اشـعالا للثورة اليونانية التى

كاد يخمد أوارها إلى الأبد ، وقد تخاذل زعماؤها وسرى اليأس إلى قلوب أنصارها ، فدبت فيهم روح الحياة والأمل من جديد .

وكان الحلفاء يعلمون اصرار تركيا على الاحتفاظ بحقوقها فاتفقوا على ارسال أساطيلهم إلى مياه اليونان لتأييد مطالبهما بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شواطئ اليونان وامداد الجيش المصرى والتركى المرابطين بها .

فأنفذت انجلترا إلى بحر الأرخبيل أسطولا مؤلفا من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال « كودرنجتون » ، وأنفذت فرنسا أسطولا من سبع سفن ، بقيادة الأميرال « ريني » ، ثم وصل بعد ذلك أسطول روسى من ثماني سفن بقيادة الأميرال « هيدن » ، وتولى القيادة العامة للأساطيل الثلاثة الأميرال الانجليزى كودرنجتون .

وأخذ الأميرال كودرنجتون يتجسس أخبار العمارتين المصرية والتركية ، للحملة التى كانت تعد بالأسكندرية ، ويبذل جهده لمنعها من الوصول إلى سواحل اليونان ، وانزال المدد بالبر .

ولكن العمارة البحرية قامت من الاسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ ، مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية

و ١٦ سفينة تركية ، وأربع سفن تونسية ، وست حراقات و ٤٠ مركبا لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل .

ولم يشعر الحلفاء إلا بعد أن وصلت هذه العمارة الى ميناء نافارين ، ورست بهـــا فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ ، وانضم اليها أسطول تركى آخر جاء من الآستانة بقيادة الأميرال طاهر باشا مؤلف من ٢٣ سفينة . ولم يجد الحلفاء سبيلا الى منعها من دخول الميناء أو انزال المدد ، وبذلك أخفقت خطتهم وخسروا الجولة الأولى .

وتولى ابرهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة(هيدرا) ، وحمـــلة برية ينفذها الى شمالى المورة .

وكانت أساطيل الحلفاء قداتخذت مكانها بادىء الأمر بين جزيرتى (هيدرا) و (ترميا) فسارعت الى ميناء نافارين لإملاء شروط الحلفاء على ابرهيم باشا ، وكان الأسطول الانجليزى أسبقها إلى الحضور ، فقد وصل قبالة (نافارين) يوم ١٢ سبتمبر ، ثم أعقبه الأسطول الفرنسى فى ٢١ منه

أما الأسطول الروسى فلم يجيء إلا فى أوائل أكتوبر .

وبادر الأميرال كودرنجتون الى المناوشة ، فبعث برسول إلى ابرهيم باشا يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ يبلغه مضمون معاهدة لوندرة من وقف حركات القتال براً وبحراً ، كما يبلغه أن الحلفاء قد أرسلوا أساطيلهم لمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية الى أية جهة من اليونان أو الى جزائر الأرخبيل ، ومعنى هذا انذار ابرهيم باشا بالكف عن ارسال الحملة البحرية الى جزيرة (هيدرا) ، وتحرك جنود البر داخل المورة .

وتكرر التهديد والوعيد والمظاهرات الارهابية ، ولكن البطل ابرهيم قابل تهديد الحلفاء بالثبات ورباطة الجأش ، وأجاب بأنه سينتظر تعليمات حكومة مصر وحكومة الآستانة ويتعهد ببقاء الأسطول فى نافارين .

ولم يكن فى مقدور ابرهيم تحدى أساطيل الحلفاء ومقاومتها بالقوة ، لأن تركيا كانت ظاهريا على علاقات ودية مع الحلفاء ، فكان عليه أن يستأذن فى مهاجمتهم وأن ينتظر الاذن

له بذلك ، وكان يتحرق شوقا الى مواجهة هـذه الأساطيل والقضاء عليها ، الا أنه كان لابد أن ينتظر .

وعقدت هدنة وقتية بين ابراهيم باشا وبين الحلفاء . غير أن نية الحلفاء الحقيقية لم تكن خالصة بل كانت ترمى الى فرض تنفيذ المعاهدة ووقف القتال على الجانب المصرى والتركى فقط ، مع ترك اليونانيين أحراراً فى حركاتهم البحرية والبرية داخل شبه جزيرة المورة أو فى بحر الأرخبيل ، وبذلك يقوى جانبهم ، ويجدون الفرصة لتنظيم صفوفهم وتلقى الامداد ، ومهاجمة الحاميات المصرية والايقاع بها .

ولم يكن ابرهيم باشا غافلا عن هـذه النوايا السيئة من بادىء الأمر ، فقد قال للأميرال الفرنسى ريني ، خلال حديث مفاوضات الهدنة : « انكم تطلبون منى وقف كل حركات القتال ، وفى الوقت نفسه تتركون الأروام يفعلون مايشاءون هذا ليس من الانصاف فى شىء » .

وفعلا انتهز الثوار اليونانيون فرصة الهدنة المزيفة وقاموا بحركات عدائية فى خليج كورنت ، واعتزموا الهجوم على

مواقـــع الجيش المصرى فى « باتراس » بشمالى المورة ، فأبلغ ابرهيم باشا هذه الحالة إلى الأمـــيرال كودرنجتون ، فـــلم يحرك ساكنا .

وإزاء هذه المؤامرة المدبرة ، رأى ابرهيم أن لامندوحة من امداد القوات المصرية فى « باتراس » حتى لاتقـــع تحت رحمة العدو ، وسار اليها بحرا فى عمارة من بعض السفن الحربية دون تحرش بأحد ، أو اعتداء على الهدنة .

فثارت ثائرة الحلفاء ، وعدّوا هذا العمل نقضا للهـــدنة واعتداء عليها ، ونسوا أو تناسوا أن ابرهيم باشا انما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة « هيدرا » ، ولم يكن ليتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية ، خصوصا إذا أحدق بها الخطر . فضلا عن أن الثوار كانوا قد نقضوا الهـدنة فعـلا بحركاتهم الحربية ، مما اضطر ابرهيم باشا إلى نجدة الحامية المصرية فى باتراس ، وإلا تركها تحت رحمة اليونان يفعلون بها ما تمليه عليها قوتهم ويقف مكتوف الايدى على مقـربة منهم وهو قادر على عونهم بمقتضى القانون والتعهد والدفاع الشرعى .

ولكن الأميرال كودرنجتون لم يكن يصغى لصوت المنطق أو العدل ، وكانت لديه خطة مدبرة ينفذها أيا كانت الظروف ، هى أن يقف فى وجه القوات المصرية ويتحرش بها ، فتعقب العمارة المصرية بأسطوله ، ولحق بها تجاه رأس « باباس » شمالى المورة ، وتهددها بالحرب ان لم ترجع عن سيرها ، فاضطرت أن تعود أدراجها إلى « نافارين » .

وقد كان ابرهيم يقدر أساطيل الحلفاء ويعرف مبلغها من القوة ، ويدرك أنها وان كانت أقل عددا من العمارة المصرية التركية ، إلا أنها أرقى نظاما ، وبوارجها أقوى سلاحا ، ومدافعها أشد فتكا وأبعد مرمى ، وقوادها وضباطها أكثر علما ودربة وكفاءة . فكان يرى الحكمة وســـداد الرأى فى تجنب الاصطدام بأساطيل الحلفاء .

وهنا يقول عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه « عصر محمد على » : « لكن قواد الحلفاء أنفسهم لم يقنعوا بخطة الدفاع بل بيتوا الشر للاسطول المصرى والتركى ، واتفقوا فيما بينهم على تدميره مهما كان مسلك ابرهيم باشا ، ومن هنا وقعت

كارثة نافارين . وهذه المؤامرة قد دبرتها السياسة الانجليزية وأوعزت بها إلى الحلفاء ، وغايتها منها أن تقضى على العمارة المصرية الفتية التى أنشأها محمد على ، فلا تعود مصر تنافسهم السيادة فى البحر الأبيض المتوسط . وهكذا كانت انجلترا ، ولم تزل ، تتربص بمصر ، وتدبر لها المكايد فى كل ناحية ، وتحول دون أخذها بأسباب القوة والمنعة فى البر والبحر » .

وفى منتصف اكتوبر سنة ١٨٢٧ غادر ابرهيم باشا نافارين ليتفقد الحاميات المصرية فى داخل المورة ، بعد أن أوصى أساطيله بعدم التحرش بأساطيل الحلفاء ، وعدم الخروج عن قواعد المودة والمجاملة ، إلى أن يجىء الرد القاطع من مصر ومن الاستانة .

ويبدو أن الأميرال كودرنجتون رأى انتهاز فرصة غياب القائد العظيم للغدر بالأسطول المصرى والقضاء عليه .

وكانت السفن المصرية والتركية مصطفة داخل الميناء على ثلاثة صفوف شبه متوازية ، كل صف فى شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من نافارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز ،

إلى جزيرة اسفاختريا التي تعتبر كحاجز للامواج . ووقفت البوارج والفرقاطات الكبيرة في الصف الأول ، وفي الصف الثاني سفن الكورفيت ، ويليها سفن الابريق وغيرها .

وكان يحمي مدخل الميناء استحكامات قلعة نافارين ، وبطاريات من المدافع في طرف جزيرة اسفاختريا ، يعاونها أيضا سفن خفيفة من الحراقات .

وكان على ظهر بعض السفن المصرية طائفة من الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي في بحريته ، فأرسل اليهم الاميرال ريني قائد الأسطول الفرنسي يدعوهم إلى الانسحاب من العمارة المصرية حتى لايحاربوا اخوانهم ومواطنيهم ، فلبوا الدعوة ، وتركوا الأسطول المصري يوم ١٨ اكتوبر في أشد الأوقات حرجا .

وفي نحو الساعة العاشرة من صبـــاح يوم ٢٠ اكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول ميناء نافارين ، واتجهت اليها

وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر كودرنجتون أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال . وعند تمام الساعة

الثانية اقتحمت البوغاز .

وأخذت سفن الحلفاء مكانها فى الميناء طبقا لخطة مرسومة ، فاصطفت على شكل نصف دائرة فى مواجهة أسطول ابرهيم باشا ، واقتربت معظم السفن حتى صارت أمام السفن المصرية والتركية وجها لوجه ، وصار بعضها على مرمى الرصاصة منها ، وحصرتها فى مكان ضيق داخل المرفأ ، لايسهل عليها فيه الحركة .

وابتدأت المناوشات من أساطيل الحلفاء بأن طلبت البارجة الانجليزية دارتموث إلى إحدى الحراقات المصرية أن ينجلى عنها بحارتها وجنودها أو أن تنسحب من موقعها .

وكان هذا الطلب بجرد ذريعة للتحرش واشعال نار القتال ، فان الرسول الذى حمل هـذا الطلب إلى السفينة المصرية ذهب اليها فى قارب مسلح ، متحفزا متحديا للنزال .

وقد زعـم المؤرخون الأجانب أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية أصابت أحد جنود الحلفاء ، وكانت السبب فى اضرام نار القتال ، وبمثل هذا يتذرع المعتدون .

على كل حال لم تمض برهة على دخول الأساطيل الدولية إلى ميناء نافارين ، حتى أخذت بوارجها تطلق المدافع على السفن المصرية والتركية .

وبالرغم من أن هذا العدوان جاء مفاجئا لأساطيل ابرهيم باشا ، ولم تكن تتوقع هذا الغدر الذي يتنافى مع أبسط آداب الحروب وتقاليدها ، فلا انذار للسفن ، ولا اعلان حرب بين تركيا والحلفاء ، بل لاذنب ولا جريرة .

بالرغم من هذا فقد أجاب الأسطول المصرى التركى على الضرب بالضرب ، وأطلق نيرانه حمما على الأعداء ، وجاهد فى مأزقه الضيق جهادا يدعو إلى الاعجاب .

وانطلقت آلاف المدافع ترسل الحمم ، وتصم الآذان ، وتلفح الأنفاس ، واشتد الكرّ والفرّ فى موقعة من أعجب مواقع التاريخ ، بل لم يعرف لها مثيل من قبل .

وكانت واقعة وحشية ، تمثل فيها الغــــدر والعبث بالمواثيق والعهود ، وانتهت بالقضاء على العمارة المصرية التركية ، فقد هلك معظمها نسفا وغرقا ، وجنحت البقية الباقيـــة على

الساحل فأحرق البحارة البواسل أغلبها حتى لاتقع فى أيدى الأعداء ، وبلغ عدد القتلى من المصريين والأتراك ثلاثة آلاف مقاتل ، فى حين خسر الحلفاء ١٤٠ من القتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

وفقدت مصر فى هذه الموقعة أسطولها ، الذى عكف عاهلها الكبير على إنشائه وتكوينه ، وأنفقت فيه الأموال الجسيمة ، وكان يرجى منه الكثير .

ونجحت انجلترا فى التبييت لأسطول كان شوكة فى جنب سيادتها البحرية .

ومع أن الخسائر المادية كانت جسيمة فى حرب اليونان ، فقد أكسبت مصر منزلة معنوية كبيرة ، وكانت خطوة واسعة نحو توطيد استقلالها ، ورفع شأنها بين الدول .

فقد كانت أول حرب أوربية خاض غمارها الجيش المصرى ، وبرهن أنه تفوق على الجيوش الأوربية فى ميادين القتال ، فلم يعد يسهل على السلطان أن ينظر إلى محمد على كوال من

ولاة السلطنة العثمانية ، بل جعلته الحرب نداً له ، وملكاً منيع الجانب ، قوى البأس والسلطان .

وظهرت شخصية مصر فى العالم الدولى ، فخاطبت الدول محمد على لا كما تخاطب والياً عثمانياً ، بل مخاطبة الند للند . وأرسلت اليه الحكومة الانجليزية تبدى شديد أسفها على ما لحق بالأسطول المصرى فى واقعة نافارين ، وتبدى رغبتها فى تمكين العلاقات الودية بين البلدين .

فالحرب اليونانية جعلت من مصر دولة مستقلة فعلا ، وكان من مظاهر استقلالها أن عقدت معها الدول رأسا اتفاق أغسطس سنة ١٨٢٨ الخاص بالجلاء عن اليونان ، وهو أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمد على .

الفصل الثامن

فتح عكا

يصف المؤرخ « جوبن » محمد على باشا الكبير بقوله: ولقد سلك مسلك الثعلب أحيانا ، ومسلك الأسد دائما ، فألقى بالعثمانيين بأيدى المماليك ، وبالمماليك بأيدى الالبانيين ، وبهؤلاء بأيدى المصريين ، وهدم أربعة ولاة ، دون أن يخشى الجلوس على أريكة مزعزعة ، حتى قالوا ان صعوده إلى تلك الأريكة كان عملا عظيما جدا ، ولكن بقاءه على تلك الأريكة كان أعجوبة »

ولكن محمد على فى الواقع كان يدرى ما يفعل ، وكان يقدر النتائج قبل حدوثها بأزمان وأزمان ، بل لعله كان يبنى على اعتبارى النصر والهزيمة ، فلا تقف الهزيمة ولا الخسائر فى طريقه ، ولا تعتور خطته المرسومة .

فلم يكد يعود جيشه من بلاد المورة حتى طلب من الحكومة التركية أن تضم سوريا إلى حكمه ، تعويضا عما تكبده الجيش المصرى من الخسائر فى الحرب اليونانية ،ولكن السلطان العثمانى لم يجبه إلى طلبه .

فهل بدأ محمد على التفكير فى ضم سوريا اليه فى سنة ١٨٣٠ ؟ وهل كان كل غرضه أن ينال تعويضا عن خسائره فى حرب المورة ؟ وهل كان التفكير وليد الحادث ؟

نجد المسيو دروفيتى ، قنصل فرنسا فى مصر ، يكتب فى رسالة إلى حكومته سنة ١٨١١ : « ان محمد على يطمع فى ولاية سوريا ، وقد قال لى يوما انه لايستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال قدره سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعه لخزانة السلطان، وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد رسوخا عنده ، منذ استظهاره على أعدائه ، وقمعه فتنة الجند ، وتخلصه من الارتباكات المالية » .

بل ان المسيو دروفيتى هذا ، لما رأى استعدادات محمدعلى فى تجهيز الحملة الوهابية ، تشكك فى حقيقة هذه الاستعدادات،

وهل يقصد بها الحجاز أم سوريا ، فقال فى رسالة أخرى لحكومته : « ان جميع الاستعدادات التى يعدها الباشا تدل على أن الحملة تخترق الصحراء ، وتصل منها إلى سوريا ، ولا تزال غايتها الحقيقية سرا مكتوما فى ضميره ، وخطته فى هذا الصدد لم تتغير ، وهى التأنى ثم التصرف بحسب الأحوال » .

وهكذا كان محمد على فى أعماله غامضا على القناصل وغير القناصل ومن يهمهم الأمر والوقوف عليه بشتى الوسائل ، ويقينى أنه بمثل هذا نجح البطل وخافه أعداؤه والمتربصون له .

والواقع أن فكرة ضم القطرين الشقيقين سوريا ومصر كانت تخالج محمد على منذ سنة ١٨١٠ ، فقد طلب فعلا من السلطان ، خلال الحرب الوهابية ، أن يعهد اليه بولاية الشام ، محتجا بأنه فى حاجة إلى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين .

ولم تشغله حرب المورة عن التفكير فيما بعدها ، وانتهاز الفرص للاعداد لمشروعاته المقبلة ، فقد كانت الفرص كفيلة باخفاء غاياته الحقيقية ، إذ تبدو كأنها بنت ساعتها ، وتصرفاته فيها لاتحمل إلا الطابع الوقتى المباشر .

ففى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٢٢ فر إلى مصر الأمير بشير شهاب ، حاكم جبل لبنان ، ملتجئا إلى واليها محمد على ، إذ عزلته الدولة العثمانية لأنه قد انحاز إلى عبد الله باشا والى صيدا الذى أغضب الباب العالى فعزله هو الآخر ، ولم يرضخ عبد الله باشا للأمر القاضى بعزله ، فصدرت الأوامر بالزحف على عكا لاخضاعه والاقتصاص منه .

وجاء هذا الحادث فرصة ثمينة لمحمد على ، انتهزها لخدمة الواليين ، ليكونا من أعوانه وأصدقائه عند الحاجة . والواقع أن استمالة والى صيدا وأمير لبنان تعتبر خطوة واسعة فى تحقيق هدفه للاستيلاء على سوريا ، إذ أن عكا عاصمة ولاية صيدا تعتبر من الناحية الاستراتيجية مفتاح البلاد السورية ، وجبل لبنان له أهمية حربية كبيرة ، لمناعة موقعه ، وشدة بأس أهله ، واشرافه على الطرق المؤدية إلى أمهات المدن السورية ، كبيروت وصيدا وعكا وطرابلس الشام ودمشق .

فما أن سنحت الفرصه لمحمد على حتى اغتنمها ، وتوسط لدى الباب العالى فى العفو عن الباشا والأمير ، وازالة كل

أثر لقرار العزل ، فتكلل سعيه بالنجاح .

وفي هذا يقول كتاب «أخبار الأعيان» لمؤلفه «طنوس الشدياق» الذي كان معاصرا لمحمد علي والأمير بشير :

« وسار الأمير بشير إلى القلعة ، فتلقاه المدبر بالاكرام وبعد أيام حضر العزيز من شبرا إلى القلعة ، واستدعى اليه جميع العلماء وبعض رؤساء العساكر ، وأمر باحضار الأمير فحضر ، فاستقبله العزيز بالترحاب ، وأمر له بالجلوس وشرب القهوة ، وأخذ يحـــادثه بألطف حديث . ثم صرفهم العزيز وأمر بابقاء الأمير وحده ، وأسر اليه جميع مارغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة ، لأنه كان مزمعا أن يتملك بلاد الشام بالسيف . ثم استأذنه الأمـــير وذهب إلى منزل الخزندار ، ثم عاد إلى حيث كان نازلا ، فأرسل له العزيز أربع حلل من ملابسه واربعة آلاف ربع ذهب فندقلي .

« وفي ذات يوم حضر العزيز إلى القلعة ، واستدعى الأمير اليه ، فحضر ، فأخبره أنه كتب يســـترحم الدولة برجوع عبد الله باشا واليا كما كان ، وطمأنه إلى اجابة ماطلب . ثم

رجع الأمير إلى منزله ، ونظر العزيز أن الخيـــل المقدمة لركوب الأمير ليست جيادا ، فأمر أن تبدل بخيـل جيـاد . . وكان الأمير يحضر كل يوم لمقابلة العـزيز حسبما أمره . وفى أثناء ذلك أمره العزيز أن يرسل أحد خدمه إلى عكاء يخبر عبد الله باشا أنى أرسلت إلى الدولة أسأل رجـوعه كما كان ، ويشدده بالثبات على الحصار ، فأرسل الأمـير أحد خواصـه يبشر عبد الله باشا بذلك .

« وبعد أيام حضر فرمان من الدولة بالعفو عن عبد الله باشا ، وأنه يخرج من عكاء بماله ورجاله ، ويذهب إلى مصر آمنا ، فشق ذلك على العزيز ، وأنفذ رسولا إلى الدولة يقول للصدر الأعظم أنه إذا لم يرجع عبد الله باشا كما كان يضطره الأمر إلى الخروج عن الطاعة ، فأتاه الجواب أن عبد الله باشا يبقى فى عكا من دون ولاية ، فراجع العزيز طالبـــا رجوع الولاية لعبد الله باشا ، وورد تخبير من الاسكندرية أن رسول العزيز خرج من اسلامبول ومعـه فرمان العفو لعبد الله باشا .

« وبعد أيام وصل رسول العزيز من اسلامبول مصحوبا بذلك الفرمان ، ثم استحضر العزيز جميع العلماء ورؤساء العساكر ، فتلا عليهم ثلاثة فرمانات ، الأول بالعفو عن عبد الله باشا وخروجه إلى مصر بماله ورجاله آمنا ، والثانى بالبقاء فى عكاء ، والثالث برجوع المنصب اليه . ثم أنعم العزيز على الأمير وولديه بثلاث فروات وثلاثة من الخيل الجياد المزينة ، وأكرمه بمائة وخمسين ألف غرش ، وأذنه بالسفر مع السلاح دار » .

وان محمد على إذ نراه يطلب العفو عن عبد الله باشا فهو غاية ماكان يتمناه عبد الله باشا ، إذ أن فى لجوئه إلى وال مثله تابع للدولة العثمانية خطرا ، أى خطر ، إذ يستهدف عقلا لتسليمه إلى آل عثمان بحكم الواجب والتبعية ، ولكن محمد على لايرضى بذلك مرة إثر مرة كلما أجيب إلى بعض طلبه ، ويأبى إلا أن يكون طلبه مجابا بأكمله ، وتبلغ قوة محمد على أنه يهدد بالخروج عن طاعة آل عثمان أسوة بعبد الله وبشير وهو يعلم أن الدولة العثمانية لاقبل لها بهذا الحلف الجديد

الخطير وهى تئن من الخارجين عليها بولايتين فى سوريا .

ولا يسعنا إلا أن نلاحظ من النصوص السابقة مبلغ ماصارت اليه مكانة محمد على فى ذلك العهد ، فيفرض ارادته على الحكومة التركية ، فى صورة علنية واضحة للجميع ، تبين للملأ قوة الوالى المصرى وضعف رجال الآستانة أمامه ، ومعاملته لتركيا معاملة الندّ للنـدّ .

ورأى محمد على أنه يزيد منعة وقوة بالحليفين الجديدين اللذين اكتسبهما ، فيحميان ظهره ويقفان فى طريق تركيا اليه، وهى مافتئت تعمل على زلزلة ولايته ، غيرة وحسدا ، وحقدا من خروجه عن سيطرتها ، وطمعا فى اعادة الحكم العثمانى على مصر ، مطلقا كما كان .

وبلغ من توثيق صلاته بالحليفين أن طلب إلى الأمير بشير عند ما تقررت عودته إلى لبنان ، أن يعد أربعة آلاف مقاتل من بلاده ليرسلها إلى المورة ، نجدة لابرهيم ، ان دعت الحاجة إلى ذلك ، وأردف هذا الطلب بآخر مثله إلى عبد الله باشا يكلفه تهيئة عشرة آلاف مقاتل مشهورين بالشجاعة.

وانا لنرى أن محمد على كان يكفيه ازاء هذه الصداقة التى وثقتها الظروف أن يميل إلى تكوين حلف قوى من ديار الشام ومصر فى شبه « اتحاد » ، يضم هذه الأقطار الشقيقة ، ويجعلها مع الأقطار الحجازية واليمن جامعة عربية متحدة ، تكون جبهة قوية تنهض بشعوبها ، وتحتل مكانها تحت الشمس .

ولكن عبد الله باشا والى صيدا أساء فهم هذا التقرب ، وشك فى يد الصداقة الممدودة اليه ، فأخذته العزة بالاثم ، وكان مفرطا فى الاعتداد بنفسه ، ويغلب عليه نزق الشباب ، فظن أن محمد على يبطن غير مايظهر ، وانه انما يتقرب اليه لحاجته الشديدة إلى عونه ، واعترافا بقوته وعظمة جانبه . وأخذته عوامل الحسد ، من تفوق محمد على وعلو شأنه ، فأخذ يعلن أنه وال كمحمد على ولا يقل عنه فى شىء وأن له من مقامه فى عكاء الحصن الحصين ميزة ليست لغيره من الولاة ، ويفخر بأن حصون عكا لاتنال ، حاصرها نابليون بونابرت وارتد عنها خائبا ، كما أنه هو نفسه شق عصا

الطاعة على الدولة العثمانية مرتين ، لمحاصرته فيها دون أن تنال منه ، وأن محمد على ليس له فضل عليه فيما صدر من عفو الباب العالى ، فقد كان شيئا محتوما .

وبدأت مظاهر الحسد والحقد تبدو على تصرفات عبدالله باشا ، نحو حليفه وصديقه الذى أنجده فى وقت الشدة . وأخذ ينتحل الأسباب لابداء حقده وتذمره ، من ذلك أنه أغضبه أن يخاطبه محمد على بكلمة « ولدنا » بينما يخاطب الأمير بشير وهو تابع لولاية عبد الله باشا بكلمة « أخينا » ، واعتبر أن ذلك مما يزرى بقدره ، وحمله الغضب والنزق على التفوه بكلام لا يسر محمد على ، بينما محمد على كان يعتبر الأول بمثابة ولده ويخاطبه « بولدنا » ، إذ كانت سنه تقرب من الثلاثين عاما ، وأما الأمير بشير وهو فى نحو الثالثة والستين ، فكان يخاطبه بأخينا ، ومحمد على كان فى الستين من عمره .

واعلانا بالاستخفاف والعداء فتح عبـــد الله باشا ذراعيه لجميع المصريين الفارين من بلدهم لسبب من الأسباب ، حتى بلغ عددهم ستة آلاف شخص ، ورأى محمد على أن الاستمرار فى تشجيع هذه الهجرة له أثره الخطير فى كيان البلاد الاقتصادى

والحربى ، كما أنه مخل بالأمن العـــام ، لأنه متى علم الأشرار أن اجتيازهم الحدود المصرية ينجيهم من العقاب ، ازدادوا جرأة على على ارتكاب الجرائم والعبث بالأمن .

فكتب محمد على إلى عبد الله باشا أن يعيد المهــاجرين إلى وطنهم ، فانجلى حقده فى جوابه الجاف على محمد على ، إذ قال : « ان هؤلاء الستة آلاف هم رعايا السلطان ، وشأنهم هنا كشأنهم بمصر ، فان شئت فاحضر لأخذهم ... » وكان هذا منه انذارا وتحديا ، أجاب عليه محمد على بقوله الموجز القوى : « انى سأحضر لأخذ ستة آلاف ، وواحدا فوقهم » وهو يقصد بهــذا الواحد الزيادة عبد الله باشا نفسه ، وكان ردا على انذاره .

ومن ناحية أخرى ، عند ما تدخل محمد على لدى الباب العالى لاستصدار العفو عن عبد الله باشا وابقائه فى ولاية صيدا ، اشترط الباب العالى أن يدفع عبد الله باشا ستين ألف كيس إلى الخزينة السلطانية ، ولم يكن لديه كل هذا المبلغ . فاقترض بعضه من محمد على ثم أبى بعدئذ رد السلفة ، زيادة فى التحدى .

وفضلا عن ذلك فان محمد على كان قد أخذ فى تنشيط زراعة

التوت لتربية دودة القز ، وكان يأخذ بزره من جبل لبنان عند ما يورق التوت . ففى سنة ١٨٣١ منع عبد الله باشا اخراج البزر من لبنان .

بل انه لما رأى من مطاولة محمد على ومصابرته ، حرصا على حلف العروبة ، نشط فى الاستفزاز والتحرش ، فأخذ يشجع تحويل تجارة الحاصلات المصرية إلى طريق صحراء سيناء بدلا من تصديرها عن طريق الموانى المصرية ، اضرارا بمصلحة محمد على .

أضف إلى هذا كله ما أثبته التاريخ من أن حكومة الآستانة لما رأت الرغبة فى الشقاق من عبد الله باشا ، أخذت تحرضه على محمد على ، وتشجعه على التمادى ، وتشد أزره .

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يرى أن عبد الله باشا هذا كان سيىء التقدير إلى غير حد ، وأن محمد على لم يكن عاجزا عنه حتى يطاوله ويصابره ، عجزا وخشية ، ولو لم يكن محمد على حريصا على رابطة العروبة واقتداء حلفها ، لاستجاب لأول بادرة من بوادر التحرش والاستفزاز ، ولو كان صحيحا ما ذكره بعض المؤرخين من أن محمد على قد تمحل الأسباب للاستيلاء

على سوريا ، لما كان قد طاول عبد الله باشا كل هذه المطاولة .
فان كل الظروف كانت مواتية له للنجاح فى فتح سوريا ان شاء ،
فان الدولة العثمانية كانت خائرة العزم ، منهوكة القوى ، لا تقوى
على نجدة صاحبها ، كما أن الحالة فى ولاية عبد الله باشا نفسه كانت
مضطربة من أثر المظالم والفوضى الضاربة أطنابها واختلال
الأمن . وحدثت فى ذلك الوقت ثورة فى نابلس لم يستطع عبد الله
باشا قمعها إلا بعد محاربة بضعة أشهر والاستعانة بالأمير بشير
الشهابى ورجاله الأشداء .

استمع إلى قاضى غزة لذلك العهد يصف الحالة إذ ذاك إلى أحد
كتاب الفرنسيين ، فيقول :

« إن مسعود الماضى كالمطرقة الثقيلة على رؤوس الغزيين ،
لايهمه من أمر الشعب سوى سلب أمواله . ان حاكمنا كرمال
الصحراء دائم الظمأ ، تتسرب ثروة البلاد إلى خزائنه كما
تتسرب مياه الأنهار إلى البحر ، بينما السكان يتململون
ويئنون ، وكأن لم يكفهم ثقل وطأة الضرائب الفادحة حتى
ذهب ثمار أشجارهم وغلال حقولهم طعاما لعربان البادية

الشرهين . ان هؤلاء العرب السلابين ينهبون فى كل عام من منطقة غزة ماتقدر قيمته بأكثر من عشرة آلاف كيس . هم يفعلون ذلك ، ومتسلمنا لايأتى بأى عمل لايقاف تعدياتهم . حينما كان أبو نبوت حاكما على هذه البلاد كان البدو قليلى الجسارة ، وكانت الحاصلات فى حرز حريز ، وبفضل سهره على إقرار الأمن وفرض العقوبات على المجرمين ألجأهم إلى الخلود للسكينة ... أما اليوم فالبدو يسرحون ويمرحون حيث شاءوا ، وأكثر من ستة آلاف منهم منتشرون فى البادية المجاورة . فعلى هؤلاء كان يجب أن يجرد عبد الله باشا جنوده ، لا على الفلاحين النابلسيين . انهم يتهامسون أن محمد على سيمد حكمه قريبا إلى بلادنا ، ويقولون أيضا إن أمتكم التى استولت على الجزائر تفكر فى الاستيلاء على سوريا . فيأيها البيك الفرنساوى ان الفاتح يلاقى عندنا أحسن استقبال ويجد أعظم حفاوة ، من أية جهة جاء . ان الحالة التى نحن فيها لا يمكن احتمالها طويلا ، وإذا تأخر قدوم الغازين فان شعبنا ، رغما عن ضعفه ، سيثور ، أما ترى أن الضغط واليأس قد يدفعان المر

إلى اقتلاع عيني النمر؟ » .

ولكن عبد الله باشا كان متشبعا بمناعة أسوار مدينته ، لأنها قد عجز نابليون بونابرت عن فتحها ، في عهد عبد الله باشا الجزار إلى تحصيناتها القديمة ، بعد انسحاب الفرنسيين ، سلسلة ثانية من التحصينات ، وحفر أمامها خندقا عميقا .

ولم تقتصر تحصينات عكا على أسوارها ، بل كانت تحميها أبراج عديدة من جهتي الشرق والشمال ، وكانت مباني الحكومة محاطة بأسوار عالية ، أما من جهة البحر فان المياه في مينائها قليلة العمق ، ولا تستطيع السفن الكبيرة الرسو فيها ، وكانت جميع التحصينات في حالة جيدة ، لأن عبد الله باشا كان دائم العناية بترميمها وتسليحها .

أما حامية المدينة فكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل أشداء ، من الدالاتية والألبانيين والعرب ، ومن هؤلاء كان حرس عبد الله باشا الخاص .

وكان لدى الحامية مدفعية قوية ، ومياه وافرة ، وكميات كبيرة من المؤن والذخائر ، بها الكفاية لاحتمال حصار طويل .

ولا شك أن شعبا بلغ منه الاستياء إلى الدرجة التى وصفها قاضى غزة ، لم يكن عبد الله باشا ليحقق به نصرا ، خصوصا وقد تسامعوا بأن الأمن فى مصر ، تحت حكم محمد على ، قد شمل طول البلاد وعرضها ، كما أن الأمير بشير حاكم جبل لبنان ، الذى كان ينجد عبد الله باشا فى الملمات ، غدا شديد الارتباط بمحمد على ولن يرفع فى وجهه السيف .

فلم يبق لهذا الوالى ما يعتمد عليه فى مقاومة حملة ابرهيم باشا سوى حصون عكا ، واستبسال حاميتها .

هذه هى الحالة عند مارأى محمد على أن ينفذ حملة مصرية لتأديب عبد الله باشا ، وايقاف غلوائه عند حدها ، وتحقيق وحدة العروبة ، التى لم يستطع تحقيقها بالملاينة والمخالفة .

وكانت الحملة المصرية التى زحفت إلى عكا وسوريا مؤلفة من ستة آلايات من المشاة ، وأربعة من الفرسان ، معهم أربعون مدفع ميدان ، وعدد كبير من مدافع الحصار ، تشاركها

قوة بحرية مؤلفة من ثلاث وعشرين سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل .

ولما جاء شهر اكتوبر سنة ١٨٣١ صدرت الأوامر بتحرك الحملة ، وكان خط سيرها يقضى بأن يسير معظم الجيش براً من طريق العريش إلى حدود سوريا ، وأن يقلّ الأسطول ابرهيم باشا القائد العام وأركان حربه وجزءا من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة ، من الاسكندرية إلى يافا .

ففى يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٣١ بدأ الجيش البرى يتحرك من معسكر « الخانقا » ، بضواحى القاهرة ، قاصدا الحدود السورية ، مارا ببلبيس ، فالقرين ، فالصالحية ، فقطية ، فبئر العبد ، فمسعودية ، فالعريش ، حيث استراح بها يوما . ثم دخل التخوم السورية فاحتل خان يونس ، ثم احتل غزة بعد أن فرت منها الجنود العثمانية .

وفى غضون ذلك أقلعت العمارة المصرية من الاسكندرية تحمل باقى الجيش ، وتقل القائد العام ابرهيم باشا وأركان حربه . فلما رسا الاسطول قبالة يافا نزل وجماؤها ، وعرضوا

على ابرهيم باشا تسليم المدينة فأنزل جنودا لاستلامها وأبقى المستلم حاكما عليها ، وجاءته حامية غزة مسلمة ، واستولى على مدافع قلعة يافا ، وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها ، وأخذ بعض رجال البحر من أهل يافا لارشاد الأسطول فى مياه عكا .

ووصلت العمارة إلى حيفا حيث ألقت مراسيها ، وأنزلت بها الذخائر والمدافع ، والتقت فيها القوات البحرية والبرية ، واتخذها ابرهيم باشا قاعدة لأعماله الحربية ومستودعا للذخائر والمؤن .

وبعد وصول ابرهيم إلى حيفا وفد اليه شيوخ القدس ونابلس وطبريا ، وقدموا خضوعهم ، فكان لذلك أهميــة كبرى ، لأنه تم بلا قتال فأمّن خط المواصلات البرية للجيش المصرى ، ومكن ابرهيم من التفرغ لتوجيه جهوده إلى عكا .

زحف الجيش المصرى على عكا ، وضرب عليها الحصار منذ يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ ، واشتركت العمارة المصرية فى حصارها من البحر ، وبعد أن أحكم ابرهيم باشا النطاق حول المدينة برا وبحرا ، أخذ فى ٩ و ١٠ ديسمبر يرميها

بالقنابل من كل جهة ، فأجابت حامية عكا باطلاق مدافعها بشدة ، وأحدثت أضرارا فى بعض السفن المصرية ، مما اضطرها إلى العودة إلى ميناء الاسكندرية لاصلاح عطبها .

ورأى ابرهيم أن الحصار طويل ، فأخذ فى خلال هذه المدة يحتل المواقع المهمة فى ولاية صيدا وما حولها ، مستعينا بالأمير بشير الشهابى ورجاله ، فاحتلت القوات مدائن صور وطرابلس وصيدا وبيروت ، كما أرسل حامية من جيشه فاحتلت القدس فى ديسمبر سنة ١٨٣١ ، وشفعها برسالة إلى شيخ الحرم القدسى والمفتى والنائب وغيرهم من الحكام فى ولاية صيدا ومنطقتى القدس ونابلس ، هذا نصها :

« تعلمون أن فى بيت المقدس كثيرا من الديارات والكنائس والآثار الدينية ، التى تحج اليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود ، وقد شكا الينا هؤلاء مما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم ، فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة ، غير ناظرين إلا إلى ارضاء أنفسكم والعمل بهواكم ، على أن هذه الغايات

الدنيئة والأفعال الرديئة لاترضاها النفوس الأبية ، ولا يصح السكوت عليها ، ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم ، وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة ، أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب ، قبطا كانوا أو روما أو أرمنا ، فى دينهم ودنياهم ، ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ، ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئا من الكلف والمغارم ، ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ، ولا تلزموا الصغار بدفع المال ، فان أطعتم أحسنتم لأنفسكم ، وان خالفتم أسأتم اليها ، والسلام عليكم ورحمة الله ».

وبعد توزيع الحاميات على المدن التى احتلتها جنود ابرهيم ، بقى لديه حول أسوار عكا نحو عشرين ألف مقاتل وستة وثمانين مدفعا من مدافع الحصار وغيرها ، فأخذ ابرهيم فى تشديد الحصار ، واستمر اطلاق النار بشدة تسعة أيام ، فرفع عبد الله باشا الأعلام البيضاء على القلعة دلالة على الرغبة فى التسليم ، فأرسل اليه ابراهيم باشا رسله ، وبينما

كانوا يتفاوضون في شروط الصلح ، وإذا بعبد الله باشا يقطع المفاوضات ، واتضح أنه تلقى كتابا من السلطان بأن المدد سيصل اليه على جناح السرعة .

وعاود ابرهيم ضرب عكا ، وتشديد الحصار عليها ، وعينه لاتغفل عما يقوم به الجيش التركى ، وعكا ثابتة على المقاومة ، وقد أضر المطر والبرد بالجيش المصرى اضرارا بليغا .

ثم غير ابرهيم خطة الحصار والضرب على طريقة جديدة ، واستمر الضرب عشرة أيام متوالية إلى أن دك البرج الذى يحمى باب المدينة ، واندك معه جانب من السور ، فردم الخندق ، وهجم المصريون من تلك الفتحة ، ولكنهم اصطدموا بجيش عبد الله باشا ، ولم تكن الفتحة تتسع لأكثر من ثلاثين رجلا ، وكان منصوبا فيها مدفعان فاستولى عليهما المصريون برؤوس الحراب .

ولما دخل الجنود المصريون المدينة أخذ جنود عبد الله باشا يلهبون ألغام البارود المبثوثة فى الأرض ، ويطلقون نيران البنادق من نوافذ المنازل ، فخشى ابرهيم سوء العاقبة وأمر

الجنود بالارتداد ، وكان ذلك فى ٩ مارس سنة ١٨٣٢ .

وان كان قد حبط هذا الهجوم ، فقد دل على أن المدينة باتت فى حالة الاحتضار ، لأن الحامية نقصت ولم يبق منها للقتال سوى ٩٠٠ مقاتل ، ولأن الأمراض تفشت فيها وقلت اللحوم والبقول ، وعادت تنتظر النهاية .

ورأى ابراهيم باشا أن الوقت قد حان لمواجهة الجيش التركى القادم من الشمال .

وكان الباب العالى قد حشد نحو عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس ، وعهد اليه رفع الحصار ، فزحف الجيش العثمانى يضم اليه كل من لقيهم فى طريقه من جموع الأكراد والعرب ، وعلم ابرهيم باشا بتحرك هذا الجيش ، فاستقر رأيه على أن يترك حول عكا القوة الكافية لمتابعة الحصار ، وأن يتحرك بالجزء الآخر من جيشه ، ليصادم الجيش التركى فى الطريق ويتغلب عليه قبل أن يصل إلى عكا .

وتقدم عثمان باشا يقود بضعة آلاف من جنوده ، وانتهز

فرصة اشتغال ابرهيم باشا فى حصار عكا ، فهاجم طرابلس التى كانت تحتلها حامية مصرية ، فدخل المدينة ، ولكن جنود الحامية ردوا المهاجمين على أعقابهم على أن مركزهم قد تحرج بازدياد قوات الأعداء ، وصارت طرابلس مهددة بسقوطها فى يد الترك ، فبادر ابرهيم باشا إلى نجدتها ، وسار اليها بطريق الساحل ، فلما اقترب منها ، ارتد عنها جيش عثمان باشا فارا من وجه البطل العظيم .

وتعقب ابرهيم جيش الترك إلى حمص ، وكان عازما على التقدم إلى حماه ، غير أن الذخائر لم تكن متوفرة لديه ، فعاد من حمص متجها نحو بعلبك ليمتار منها بالذخيرة ، فتوهم عثمان باشا أن هذا التراجع علامة الضعف ، فتقدم لمهاجمة الجيش المصرى ، فالتقى به فى سهل «الزراعة» وهى قرية جنوبى حمص.

وكان جيش الترك مؤلفا من فرسان العرب والأكراد أكثر عددا من قوات الجيش المصرى ، فأحاطوا بالجيش من كل جانب ، وخيل اليهم أنه أصبح فى قبضة يدهم ، ولكن ابرهيم رتب جنوده على هيئة صفوف منتظمة متراصة ، ووضع

وراءها المدافع حتى لايراها المهاجمون ، فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة ، وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية ، فلبثت هذه ساكنة ، حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون وراء المدافع ، وانفجرت هذه بقنابلها لحصدت المهاجمين مشاة وركبانا ، واختل نظامهم وتشتتوا ، فسار المصريون فى أعقابهم حتى دفعوا بهم فى نهر العاصى ، وغرق منهم عدد كبير ، وارتد عثمان باشا ببقية فلوله إلى حماة ينتظر المدد .

ورأى ابرهيم أن المدد ان يجىء للجيش التركى قبل مضى شهرين ، فاطمأن باله من هذه الناحية ، وعاد إلى عكا ، وأخذ يرمى سورها بالمدافع القوية ، حتى تصدع السور ، وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة .

وفى صباح يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ حملت الجنود المصرية على الثغرات الثلاث ، فاستولوا على اثنتين منها ، أما الجنود الذين وجهوا للاستيلاء على الثغرة الثالثة فقد لقوا مقاومة شديدة ، فارتدوا إلى الوراء .. ولما أبصر ابرهيم باشا ارتدادهم بادر

إلى نجدتهم بجزء من الاحتياطى ، وتقدم هو فى طليعة الجند شاهرا سيفه ، فدبت الحمية فى نفوس الجنود ، وعادوا إلى الثغرة فاقتحموها ، ودار القتال حتى المساء ، ودافعت الحامية دفاعا مجيدا ، إلى أن عظمت خسائرها ، وكلت عن مواصلة الحرب ، فطلب عبد الله باشا التسليم ، وسلم المدينة فى مساء ذلك اليوم .

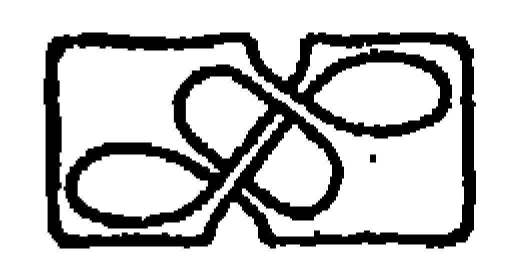
وكان لسقوط عكا دوى عظيم تجاوب فى الخافقين لأنها هى التى امتنعت على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة ، وقبل أن تزيد حصونها تحصينا ويحفر الخندق العميق حولها ، فانتصار ابرهيم باشا فى فتحها صفحة مجد وفخـــار للجيش المصرى ، أولته مكانته بين أرقى الجيوش فى العالم أجمع ، بل لقد أصبح فتح عكا مثلا يضرب حتى يومنا هذا ، يصغر بجانبـــه أى عمل آخر خطير .

وإن كان فتح عكا شرفا عظيما للمصريين ، فان اكرام ابرهيم ومحمد على للمحارب المغلوب ، شرف عظيم بدوره ، يلقى درسا على المحاربين فى كل زمان ومكان .

لما دخل عبد الله باشا على ابرهيم قام له مرحبا فاتحـا ذراعيه ، وانحنى عبد الله باشا إلى الأرض شأن المغلوب ، فسارع ابرهيم إلى رفعه بكلتا يديه وقال له : « أنا وأنت متساويان ، فذنبك إلىّ لايغتفر ، ولكنك تجرأت على محمد على وهو أكبر حلما » فرد عبد الله باشا بقوله : « هذا حكم القدر » . وأكثر ابرهيم من مجاملة أسيره ومعاملته معاملة الضيف العزيز ، اعترافا ببطولته وقدرته . وبعد أن تناولا طعام العشاء معا ، وقام عبد الله باشا إلى غرفة نومه أظهر ابرهيم الاهتمام بأسباب راحته ، حتى ضاق عبد الله باشا بكل هذا التلطف ، وأخذته بقية من عنجهيته ، فالتفت إلى ابرهيم وقال له : « لاتعاملنى ياباشا معاملة الحريم ، فان دفاعى يبرهن لك على الضد ، وكل أخطائى أنى اعتمدت على الباب العالى الذى لايزيد شرفه فى نظرى على من لاشرف لهن من السيدات ، ولو أنى عرفت ذلك لاتخذت الحيطة ، ولما كنت اليوم ملقيا بين يديك » .

وفى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٢ سافر عبد الله باشا إلى مصر

على سفينة حربية ، فارسل محمد على زورقه الخاص لاستقباله مع حرس شرف ، ورغما عن اقامة حجر صحى ، لم يكلفه الانتظار مدة الحجر ، وعند نزوله الى البر أطلقت المدافع تحية له ، واستقبله كبار رجال الحكومة ، ثم توجه توا إلى قصر محمد على ، فنهض له واقفا واستقبله ببشاشة ، فدنا عبد الله باشا فلثم ثوبه والتمس عفوه ، فمد له محمد على يده وأجلسه بجانبه وتلطف معه فى الحديث حتى أنه قال له إنه نسى الماضى وإنه سيعامله كأحد أولاده ، وأهدى اليه علبة سعوط وسيفا مذهبا . وأحسن مثواه ، وأسكنه فى قصر خصص له بجزيرة الروضة ، وجمع عليه أسرته ، وحفه بكل رعاية واكرام .



الفصل التاسع

فتح دمشق

أما وقد واجه السلطان العثمانى فشل جيشه أمام جيوش ابرهيم ، وسقوط عكا التى كان يعلق عليها الآمال فى إيقاف الجيش المصرى عند حده ، والتى كشفت الغطاء عما يكنه لمصر وواليها ، فلم يعد له صوابه إلا إذا أتى أمراً جديداً يثبت ماله من حقوق ونفوذ ، فلم يجد أمامه إلا ورقة أخيرة يلعب بها لعله يكسب فى نهاية الشوط ، ولكن الهزيمة وأثرها والغيظ وثورته جعلت تفكيره فى إبراز حيلته التى اعتمدها طائشة غير سليمة ، فقد انتوى أن يحارب محمد على بسلاح الدين ورجال الدين ، وكفى أنه خليفة المسلمين ، وقد فاته بل أعمته

وامل الفشل والحقد الدفين ان محمد على هو منقذ الحرمين شريفين ومؤمن طرق الحج ومعبّد مناسكه ، وموطد شعائره .ميسر سبله بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

فانعقد المجلس الشرعى فى استانبول بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٨٣٢ ، وكان مؤلفا من ثلاثة مفتين وأربعة من قضاة العسكر ، واثنى عشر قاضيا من قضاة المحاكم ، وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية ، ومن إمامى مسجد آيا صوفيا ومسجد السلطان أحمد ، وأصدروا الحكم الآتى :—

« حيث ثبت خروج محمد على وولده ابرهيم عن طاعة سلطانهما لحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف .

أولا — تجريد محمد على وولده ابرهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لها من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان » .

وحمل هذا الحكم إلى محمد على قائد إحدى السفن الانجليزية، فلم يعبأ به ، وكان موضع الهزء والسخرية فى مصر .

ولم يكتف السلطان باستصدار تلك الفتوى والحكم ، بل أصدر فرمانا بتولية حسين باشا سر عسكر الدولة (أى القائد العام) حكم مصر وكريد وبلاد الحبشة ، وهذا هو الفرمان الثانى الذى يقضى بتولية وال غير محمد على على مصر كما أسلفنا ، جاء فيه :

« من سلطان الدولة العلية العثمانية وولىّ نعمة المملكة العظمى الشاهانية ، إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا — الموجه اليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية ديار مصر والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بهما .

« لايخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقا بعد أن كان فردا من أفراد الرعية لايعرف له حسب ولا نسب ، قد تدرج إلى أوج المعالى ، وما زال حتى تولى

حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى ، فنظرنا اليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بالرفق والتودد والاخضاع ، وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران ، ولا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران ، وأن يقابل نعمتنا بالصدق، ولكنه أطاع هواه وداخله الغرور والكبرياء — وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن وقد أقلق راحة أهالى البانيا والروملى الشرق بشن الغارة على بلادهم، وكثيرا ما ألح على مصطفى باشا بواسطة جلال بك وقاوللى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا، وطالما منّاه بالمال والرجال ، على أنه لم تخف عنا خافية ، وكثيرا مادس إلى عبد الله باشا والى عكا المخلص فى طاعتنا ، فوقعت بينهما الحرب ، وجاء ابراهيم بن محمد على فى عسكر جرار إلى يافا ففتحها ، وإلى طرابلس ودمشق فاستولى عليهما ، وإلى عكا لحاصرها ، فلم نعجل بمؤاخذته ، وقد حم القضاء فلم يبق باعث على التهاون والاغضاء ، ومع ذلك نعفو عمن يأتى إلى بابنا سواء كان هو وولده أو أرباب المناصب والعساكر . . . .

وقد أصدرنا فرماننا هذا بتوجيه ولاية مصر وكريد وبلاد الحبشة وما يتبعهما اليك ، ورسمنا منا بنزعها من أيدى اولئك المارقين ، فعليك أن تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ، ثم تنحدر إلى ديار مصر ، فتنزع تلك البلاد من أيديهم ، واذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله ورسوله وطاعة خليفته » .

وأصدر الباب العالى أمراً إلى الأسطول التركى بالخروج وهو مؤلف من ست سفن حربية كبيرة ومن ثمانى فرقاطات ومائة مركب نقل ، وقرن خبر خروج الاسطول بخبر حشد مائتى الف مقاتل بقيادة السر عسكر حسين باشا . وبمثل هذا الموكب مع الفارق وفد الوالى الأول الى الاسكندرية ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه .

ووكل الباب العالى إلى سفينتين تساويتين الوقوف على أخبار الاسطول المصرى ، فلما وصلت إحدى السفينتين إلى الاسكندرية قال محمد على لربانها : انه مستعد لابلاغهم جميع الاخبار حتى يدرك الباب العالى أنه لا أمل له فى الفوز .

وأخذت النجدات المصرية ترسل إلى سوريا ، أما ابرهيم فانه بعد دخول عكا أمر بترميم جدرانها وأسوارها وقلاعها، ونصب المدافع فيها ، لأنه عزم على جعلها مركزا لجيشه في الشام .

وبعد أن أراح ابرهيم جنوده ورتب شئونه في عكا ، اعتزم أن يمضى شمالا إلى دمشق ، فغادر عكا في يوم ٩ يونيه سنة ١٨٣٢ في جيش مؤلف من ١٨٠٠٠ مقاتل ، منهم ٩٠٠٠ من الجنود المصريين النظاميين و٩٠٠٠ من العربان المصريين والبدو السوريين والدروز .

فلما اقترب من دمشق حار أهلها بين الجيش التركى القادم من الشمال ، والجيش المصرى القادم من الجنوب، وهم تحت حكم الأتراك الذين يمقتونهم كل المقت ، وفى الوقت نفسه هم تواقون إلى ابرهيم والى عدل ابرهيم لانقاذهم من مظالم الترك ، ودعاهم أغاوات البلد إلى حمل السلاح ، ولكنهم لم يبدوا إلا مقاومة ضعيفة ، سلموا بعدها ، وخرج وفد من أعيان المدينة ، وقابلوا ابرهيم وقدموا الطاعة والخضوع .

ودخل ابرهيم المدينة يوم ١٦ يونيو ، وفى اليوم التالى أخرج جيشه ونصب مضاربه فى سهل القابون خارج البلد ، وكان جنود الجيش المصرى محل الاعجاب بنظامهم واحترامهم أملاك الأهالى وأموالهم ، فكانوا يحضرون إلى المدينة ويعودون منها وفى طريقهم البساتين الحافلة بالأشجار المثمرة ، فلا يمسون شيئا منها ، وكل ما احتاجوا اليه اشتروه ودفعوا ثمنه ، على عكس ماتعوده الأهالى من جنود الجيش التركى من كثرة الاعتداء على الأموال والأعراض ، واتلاف المزروعات ، مما حبب الحكم المصرى إلى نفوس السوريين .

وأقام ابرهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوما ، ورتب الادارة فيها على نظام جديد ، فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيانها متسلماً عليها ، وأنشأ بها مجلس شورى مكونا من ٢٢ عينا من أعيان البلد ، وجعل فيه أعضاء ينوبون عن النصارى واليهود ، وبذلك أبطل حكم رجال الشراى ، وأقر العدل والأمن فى البلاد .

وهذا نص البيان الذى صدر عن تأليف مجلس الشورى :

«صدر أمر السر عسكر ابرهيم باشا في ١٥ صفر إلى الأشخاص المذكورة أسماؤهم في ما بعد وهم من أشهر عائلات دمشق الشام وأكابرها وأعيانها وشيوخها ، ليكونوا أعضاء للمجلس المخصوص ، (ثم ذكر أسماء المعينين) .

«فليكن معلوما أنه عملا بالحديث القائل كل راع مسئول عن رعيته ، وجب علينا النظر في أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه ، الأمر الذي لا يحصل إلا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم ، وفصل الأحكام فيهم بالحق ، قد استحسنّا تشكيل مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأي من الأعيان والأكابر والتجار للنظر في القضايا والمشورة فيها ، ولذلك قد اخترناكم من عموم أهل دمشق الشام ، وأذناكم بسماع الدعاوي وبتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف .

«أما مايتعلق بسياسة الأمور الأخرى فيكون الفصل برأيكم وبعد التشاور وتداول الآراء بين أرباب المجلس جهرا واتفاق الآراء يحكم بما تتفق عليه الآراء ، وبعد الحكم يقدم تقرير

بذلك إلى مجلسنا للتنفيذ ، ويكون ذلك بلا ميل ولا غرض في النفس ولا شهوة خاطر ، ولا انحراف إلى صديق أو وجيه ، وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجلس ، فيكون قد خالف أمرنا وأوقع نفسه تحت طائلة الملام .

« صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم ، فاغتنموا ثواب الرعية ، وجزاء الخدمه الدينية الجليلة ، والحذار الحذار من الخلاف » .

ومما فعله ابرهيم في دمشق تعيين النصارى في وظائف الحكومة ، والسماح لهم بركوب الخيل ، وكان ذلك محظوراً عليهم تحت الحكم التركي .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أنه قد ذهب وفد من العلماء ورجال الدين في دمشق لمقابلة ابرهيم باشا ، يبثون شكواهم من أن المسيحيين صار يسمح لهم بامتطاء الجياد وبذلك زالت الفوارق بين الكفار والمسلمين . فأجاب ابرهيم متهكما أنه إذا كان لابد من الاحتفاظ ببعض المميزات ، فليركب المسلمون الهجين أو الإبل ، وبذلك يحلون مكاناً أرفع من المسيحيين !!

وبهذه اللباقة ، وحسن التخلص ، وسرعة البديهة ، حل العقدة وأسكت المتذمرين المتزمتين .

الفصل العاشر

على أبواب الأستانة

نظم ابرهيم شئون جيشه وشون البلاد الداخلية ، ثم اتجه إلى ملاقاة الجيش التركى القادم من الشمال فى أكبر قوة وعتاد .

وكان السلطان قد حشد جيشا مؤلفا من ستين الف مقاتل ، وأعد أسطولا من خمس وعشرين سفينة للاقلاع من الدردنيل ومحاربة الأسطول المصرى ، وعهد بقيادة البرّ الى حسين باشا القائد العام ، ومنحه لقب « سردار أكرم » ، ووهب له ولاية مصر وكريت والحبشة ، إذا هو قهر الجيش المصرى وضرب ابرهيم ومحمد على الضربة القاصمة .

تقدم حسين باشا ببطء ، فلم يصل إلى مضايق طوروس الا فى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٣٢ ، ولسوء تدبيره لم يشأ أن يتقدم بمجموعة لملاقاة الجيش المصرى ، فظل على مقربة من انطاكية ، وأنفذ جيشا مكونا من خمسة وعشرين الف

مقاتل للتحصن فى حمص ووقف تقدم الجيش المصرى وكسر شوكته ، وكان على رأس الجيوش التركية ثمانية من الباشوات تحت قيادة محمد باشا والى حلب .

وبادر ابرهيم إلى القضاء على جيش الباشوات فى حمص قبل وصول جيش حسين باشا ، فسار من دمشق فى ٣٠ يونيو ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بقية جنده ، فصارت قوة الجيش عندما بلغ حمص نحو ثلاثين ألف مقاتل .

واشتبك القتال عنيفا رهيبا ، وتفوق الجيش المصرى ببسالته ونظامه وحسن قيادته ، فلم تدم «وقعة الباشوات أكثر من أربع ساعات ، إذ بدأت وقت العصر يوم ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ وانتهت عند الغروب ، وكانت أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصرى والتركى وجها لوجه ، وحاقت الهزيمة النكراء بالجيش التركى فولى الادبار ، وذهب انخذاله بما فى نفوس الأهلين من هيبة ، فأتبعته قبائل عنزة بالقتل والسلب والنهب .

وتقدم الجيش المصرى فاحتل «حماه» و «حلب» بلا مقاومة ، بل بين مظاهر الترحيب، ومكث فى حلب بضعة أيام استراح فيها، وجاءت الوفود من «أورفا» و «ديار بكر» تعلن خضوع المدينتين لابرهيم .

أما الجيش التركى فقد سار إلى مضيق «بيلان» جنوبى

الاسكندرونة ، وهو أحد مفاتيح سوريا من الجهة الشمالية ، وحصن فيها مواقعه تحصينا منيعا ، على قمم الجبال .

وسار الجيش المصرى إلى مواقع العدو ، وعسكر فى السهل المنبسط تحت المضيق ، وأنعم ابرهيم النظر فى مواقع الترك على جبل بيلان ، فرآها منيعة يصعب على الجيش المرابط فى السهل المنبسط فى سفح الجبل أن ينال منها منالا ، فاستقر رأيه بعد دراسة الموقف أن لايهاجم الترك مواجهة ، وأن يدبر الخطة الحكيمة التى تتغلب على العقبات .

فقام بحركة التفاف بديعة ، تولى قيادتها بنفسه ، فاجتاز الطرق الوعرة والمصاعب المضنية ، ثم ركز هجمات جيشه ، فأوقع فى صفوف الترك الاضطراب وبدد جموعهم ، فتخلوا عن مواقعهم على طول الخط ، واحتلها المصريون ، وبذلك انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى بعد قتال دام ثلاث ساعات فى يوم ٣٠ يوليو ١٨٣٢ ، فقد فيه الترك من رجالهم نحو ٢٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسر منهم المصريون ٢٠٠٠ أسير وغنموا ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخائر .

وفرت فلول الترك إلى الاسكندرونة ، فسار المصريون في أعقابهم وأسروا منهم عددا كبيرا واحتلوا الاسكندرونة ، ثم ساروا حذاء الساحل فاحتلوا « بياس » شمالي الاسكندرونة وأسروا منها ١٩٠٠ مقاتل من الأتراك ، وسلمت اليهم أنطاكية واللاذقية والسويدية .

وبعد إنزال هذه النكبة الساحقة بالجيش التركي في واقعة بيلان ، اجتاز المصريون حدود سوريا الشمالية ، ودخلوا ولاية « أطنه » من بلاد الأناضول وعبروا نهري جيحون وسيحون واحتلوا مدينتي أطنه ، وطرطوس ، ثم احتلوا أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية .

فأعد السلطان التركي جيشا جديدا عهد بقيادته إلى الصدر الأعظم محمد رشيد باشا ، وكان هذا الجيش مؤلفا من ٥٣ ألف مقاتل ، واحتشد هذا الجيش في الآستانة ، وعرضه السلطان محمود بنفسه ليبث في قلوب رجاله روح الشجاعة والاقدام ، والصمود لهذا العدو الرهيب ، وزوده ببعض الآلايات المشاة النظاميين وعدد وافر من المدافع .

ثم تقدم رشيد باشا بهذا الجيش العرمرم فى بطاح الأناضول ليلتقى بالجيش المصرى ، جيش ابرهيم الذى اشترك معه فى حروب المورة وخصوصا أمام ميسولونجى . فيالسخرية الأقدار .

أما ابرهيم فكان يواصل زحفه فى الأناضول ،واحتلت قواته مضيق «كولك» من مضايق جبال طوروس ، كما احتل عنوة مدينة «شفت خان» فى الوادى المنيع الذى يلى المضيق ، وهزم الترك فى «أولو قشلاق» وأجلاهم عن هرقلة (أركلى) ، فانفتح الطريق أمام الجيش المصرى ، ومضى فى زحفه حتى بلغ «قونية» التى أخلاها الأتراك من غير قتال ، هربا من وجه الفاتح الذى لايشق له غبار ، ولا تجدى معه المقاومة .

وفى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش التركى إلى شمالى قونية التى اتخذها ابرهيم قاعدة عسكرية ، وتجنب هذا الجيش الدخول فى معركة ، فانقضى يوما ١٨و١٩ فى مناوشات حربية استولى فيها المصريون على كثير من

الأسرى وغنموا فيها بعض المدافع .

وفى صباح يوم ٢٠ ديسمبر تقدمت جيوش رشيد باشا إلى قونية ، وأخذ كل من القـــائدين العظيمين يرتب مواقع جنوده استعدادا للاشتباك .

وفى اليوم التالى كان الضباب يخيم على ميدان القتال من الصباح ، لحال درن اكتشاف كل من القائدين مواقع الجيش الآخر ، على أن ابرهيم كان يمتاز على رشيد باشا بأنه درس الجهة التى سيدور فيها القتال ، ومرن جنوده على المناورات فيها قبل اشتباك الجيشين .

ومرت لحظة خفت فيها وطأة الضباب قليلا ، فأمكن ابرهيم أن يلمح موقع الجيش التركى ، فرتب خطة الهجوم ترتيبا محكما ولكن قبل أن يبدأ هجومه تقدمت صفوف الترك وأخذت تطلق القنابل ، فلم يجب المصريون على الضرب بمثله ، إلى أن تعرف ابرهيم على صوت الضرب مواقع الترك تماما.

واصطدم الجيشان اصطداما رهيبا ، انتهى بهزيمة الجيش التركى ، بعد أن دام القتال سبع ساعات ، إذ بدأ فى الظهر

وانتهى بعد غروب الشمس بساعتين ، ولم تزد خسارة المصريين عن ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا ، أما الجيش التركى فقد أسر قائده رشيد باشا ونحو خمسة آلاف أو ستة آلاف من بينهم عدد كبير من الضباط والقواد ، وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف ، وغنم المصريون منه نحو ٤٦ مدفعا ، وعددا كبير من الرايات .

وبعد فهذه معركة « قونية » ، صفحة مجد وفخار ، فى تاريخ مصر العسكرى والحربى ، ونصرا مبينـــا للجيش المصرى العتيد ، سجل فيه قوته وبسالته وحسن قيادته ، ورفع رأس مصر ، وأصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور ، فارتعدت فرائص السلطان محمود .

واسترعت انتصارات الجيش المصرى أنظار الدول الاوربية ، وفتحت باب المسألة المصرية ، إذ أن الروسيا نظرت بعين الخوف والوجل إلى تقدم الجيش المصرى واقترابه من عاصمة تركيا ، وخشيت إذا اطرد التقدم أن يستولى محمد على باشا على عرش السلطنة ويمد نفوذ الدولة المصرية إلى ضفـــاف

البوسفور والدردنيل والبحر الأسود ، فيؤسس دولة قوية فتية على أنقاض السلطنة العثمانية المتداعية ، ويحول دون تحقيق أطماعها فى الوصول إلى البواغيز وإلى البحر الأبيض المتوسط.

فبادرت الروسيا إلى التدخل لمعـــاونة تركيا ، وأوفدت الجنرال «مورافييف» إلى السلطان محمود ليعرض عليه استعدادها للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانيـة . وهال فرنسا وانجلترا أمر هـذا التدخل الذى يعـرض سيـاستهما ومصالحهما للخطر ، فبذلتا جهودهما لوقف تقدم الجيش المصرى حتى لاتجد الروسيا مسوغا لحماية تركيا .

وصارت مصر قبلة أنظار الدول الأوربيـة ، وعلى خطة مصر فى ذلك الحين كان يتوقف التوازن الدولى ، ومن أجل ذلك وفدت رسل التفاهم على محمد على من كل صوب .

وفى غضون ذلك كان ابرهيم يواصـل زحفه ، فاحتـل «كوتاهية» وصار على مسافة خمسين فرسخا من الآستانة ، ثم احتل «مغنيسيا» بالقرب من أزمير ، وانفـذ رسـولا إلى أزمير ليقيم الحكم المصرى ، ورحبت المدينة بهذا الانقلاب ،

لكن الأميرال روسين سفير فرنسا فى الآستانة تدخل لدى ابرهيم حتى لايستفحل النزاع وتتخذ الروسيا احتلال أزمير ذريعة إلى حماية تركيا ، فلم يسع ابرهيم إلا الإجابة بانه لايقصد احتلال أزمير . .

ودارت مساعى الدول بين الفريقين ، وكان ابرهيم يتهدد تركيا بالزحف على الآستانة إذا لم تجب مطالبه ، إلى أن أوفد السلطان مندوبا عنه إلى كوتاهية ، مقام ابرهيم ، وبعد مفاوضة دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح فى ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ ، وهو المعروف باتفاق كوتاهية ، ويقضى بأن يتخلى السلطان لمحمد على عن سوريا واقليم أدنة ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز ، مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول .

وبمقتضى اتفاق كوتاهية صارت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق كولك بجبال طوروس ، وبذلك انتهت الحرب السورية بتوسيع نطاق الدولة المصرية وبسط نفوذها على سوريا وأدنة وتأييد سلطتها على كريت وجزيرة العرب .

الفصل الحادى عشر

نصيبين وما وراءها

لم يقبل السلطان اتفاق كوتاهية إلا مرغما ، وكان يضمر السعى لنقضه عندما تحين الفرصة ، وعقد سرا مع الروسيا معاهدة «هنكار أسكله سى» فى ٨ يوليه سنة ١٨٣٤ ، وهى معاهدة دفاعية هجومية ، تبسط لروسيا الحماية الفعلية على تركيا .

وأدرك ابرهيم حقيقة الموقف ، فعنى بتوطيد مركزه فى سوريا ، فأمن حدودها الشمالية ، واهتم بتحصين مضايق جبال طوروس ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية فى أهم المدن السورية . وبلغ عدد الجيش المرابط فى سوريا نحو سبعين ألف مقاتل ، رابط معظمه فى الجهات

الشمالية القريبة من الحدود التركية ، واتخذ ابرهيم مقره العام فى أنطاكية لموقعها الحربى وقربها من التخوم الشمالية .

وما فتئت تركيا بعد هزيمتها فى معركة قونية وابرامهـــا اتفاق كوتاهية ، تعد المعدات وتبذل الوسائل لاسترجاع سوريا واقليم أدنة ، فحشدت منذ سنة ١٨٣٤ جيشا فى « سيواس » تأهبا للزحف على سوريا عند سنوح الفرصة .

على أنها لم تكن لتجرؤ أن تتصادم مع الجيش المصرى المظفر ، وتقضى على البقية الباقية من عمرانها وملكها ، فأخـــذت تدس الدسائس لمصر فى سوريا ، وتحرض أهلها على الثورات وخلع أيديهم من الطاعة . وتكاتفت معها الدسائس الانجليزية ، فكان لهذه وتلك أثر كبير ، وخصوصا وقد شرع ابرهيم فى اقرار الامن والنظـام وتثبيت الحكم ، وما يتبع ذلك مما لايرضاه العامة .

وفعلا قامت ثورات كثيرة فى أنحاء البـلاد كبدت الجيش المصرى فى اخمادها خسائر كبيرة ، وهذا ماكانت تبغيه الدسائس التركية والانجليزية .

ولما رأت تركيا أن فرصتها سنحت ، احتشدت طلائع الجيش التركى فى قرية « نصيبين » (١) وحولها ، وهى بلدة واقعة فى الأراضى العثمانية على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية ، واحتلت من القرى ماحول مدينة «عينتاب» واجتازت سرية من الجيش التركى نهر الساجور وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا ، فنقضت بذلك الحدود المرسومة فى معاهدة كوتاهية ، وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية « تل مباشر » بعد أن قتلوا وأسروا فريقا من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب المنادى .

وفى غضون ذلك كان ابرهيم قد أرسل إلى أبيه فى مصر نبأ تخطى الأتراك حدود اتفاق كوتاهية ، ويسأله مايأمر به حيال هذا الاعتداء . وفى منتصف يونيه ورد جواب محمد

---

(١) يقول الأستاذ عزيز خانكى بك أن صحة الاسم « نزيب » بينما يؤكد عبد الرحمن الرافعى بك ، والحق معه ، أن صحته « نصيبين »

على ، يعهد إلى ابنه بأن لايكتفى بارجاع الاتراك إلى الحدود ، بل عليــــه حربهم وسحق جيشهم مادامو لم يراعوا العهود والمواثيق ، فاستعد لمواجهة الجيش التركى الذى احتشد فى نصيبين .

فحشد الجيش المصرى مشاة وركبـــانا على ضفاف نهر الساجور ، وتحرك يوم ٢٠ يونيه صوب قرية «مزار» جنوبى غرب نصيبين ، وتقع على ساعتين من معسكر الجيش التركى ، فأخلتها الحامية التركية وانسحبت إلى نصيبين ، وأتخذها ابرهيم قاعدة للهجوم .

وفى ليل ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ قام جيش الترك بهجوم على المصريين فى جنح الليل ، على أمل أن يأخذهم على غرة ويوقع الفشـل فى صفوفهم ، ولـكن يقظة الجيش المصرى لم تمكنه من أمنيته ، فأصلته النيران المصرية وفتكت بعدد كبير من جنوده .

وفى صباح اليوم التـالى ٢٤ يونيـو قام ابرهـيم بحركات الهجوم طبقا لخطته التى وضعها باحكام وفطنة استدعت اعجاب الضباط الأوربيين الذين كانوا فى معسكر الجيش التركى نفسه ،

فقد شهدوا بأن حركات الجيش المصرى كانت تسير طبقا لخطط الجيوش الأوربية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية .

وكانت معركة نصيبين نصرا مبينا للجيش المصرى ، فقد هزم الأتراك هزيمة منكرة وألجأهم إلى الفرار تاركين بنادقهم وذخيرتهم وجميع مدافعهم وخيامهم وكل مافيها من العتاد والميرة ، وبلغت خسائرهم نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وكان من قتلاهم بعض القواد والضباط ، وأسر منهم مايقرب من ١٥ ألف أسير ، واستولى المصريون على نحو ٢٠ ألف بندقية و ٤٤ مدفعا ، وفى اليوم التالى استولوا على ٣٠ مدفعا فى حصن « بيره جك » ، وكذلك استولوا على خزينة الجيش التى لم يتمكن الترك من أخذها عند الهزيمة ، وكان بها من النقود ماقيمته ستة ملايين فرنك .

أما الجيش المصرى فقد بلغت خسائره نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح وهى خسارة لاتقارن بهذا النصر المبين ، الذى حفظ استقلال مصر وكان له سياجا من الخطر ، والمجد يروى بالدماء فيتوطد ويتأكد .

هذه الانتصارات هي صفحة فخار لمصر وجيشها وقائده العظيم ابرهيم باشا ، وانك لاتجد برهانا على عظمة ابرهيم أقوى من كونه قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر إلى حيث جعل تركيا والدول الأوربية تقف مبهوتة مضطربة ، كأنما هى أمام القدر الذى لايرد ، ولاتقف فى طريقه عقبة .

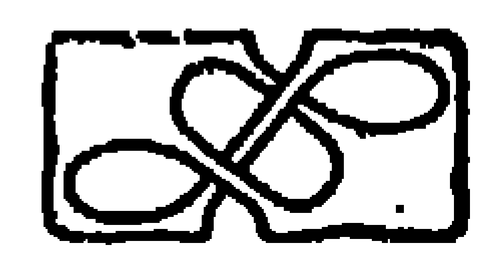
وكان يجب أن تكون النتيجة المنطقية لمعركة نصيبين هى اقرار مصر فى حدودها التى نالتها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سوريا وجزيرة العرب واقليم أدنة وجزيرة كريت ، ولكن السياسة الأوربية لاتعرف المنطق إلا إذا كان فى صالحها أو صالح أبناء جلدتها ، فأبت مطامع الدول على مصر أن تجنى ثمار تضحياتها وانتصاراتها .

وما يكاد يحل يوم ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ حتى تكون قد أبرمت المعاهدة الشهيرة بمعاهدة لندرة ، بين انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، وهى تقضى بأن يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ، ويكون له مدة حياته حكم ولاية عكا ، على أن يدفع جزية سنوية للباب العالى ويكون

خاضعا للسلطنة العثمانية ، وتعد قوات مصر البرية والبحرية جزءا من قوات السلطنة ومعدة لخدمتها . وتتكفل الدول الموقعة على المعاهدة بتنفيذ بنودها بالقوة .

ولكن لم تضع الخسائر والتضحيات عبثا ، فقد فتحت أذهان المصريين إلى أن لمصر شخصية منفصلة تماما عن القومية التركية .

ولولا حروب مصر وانتصاراتها مارضيت أوربا ولا تركيا باستقلال مصر المقيد بالسيادة العثمانية ، بل لرجعت بها ولاية كسائر الولايات العثمانية يتعاقب عليها الولاة الترك كل سنة أو سنتين .



من أدب الحـــرب

مكانة الجيش المصرى وأثر الحروب فى روحه المعنوية

أما إن هذه الحرب قد افادت منها مصر فى خلقهـــا وكيانها وعظمتها ومجدها ، وكيف سمت النفوس وكيف غزا أبناء مصر وكيف حاربوا ، وما شعورهم وكيف فعل النصر بروحهم وكيف صقلتهم التجارب ، بل ما عمله فى همتهم وحفز إستبسالهم بما خاضوه من معارك كان حليفهم النصر فهانت عليهم كل شدة وبقى أثر النصر بهالته وتاجه ونوره يحس به كل جندى كأنه على رأسه وأنه ممن بنوا فى صرحه بقدر . لقد كان الفوز والنصر والنجاح عاملا بل سلاحا مستترا فى النفوس، بل كان أقوى الأسلحة أثرا وقوة ودفعا وحفزا ، لم يكلف مصر وقائد جيش مصر مالا ، ولكنه النصر يولّد النصر وينتج النصر وليس أنجح فى الدنيا من النجاح .

بين أيدينا وصف شعرى لضابط بل لشاعر جمع بين السيف والقلم ، ورجل من رجال الثورة العرابية الذين تأثروا بالحروب وأبوا لمصر إلا حقها فيما بعد كاملا غير منقوص .

لقد خاض عمار حرب كريت فى زمنه فوصفها وصفا إن دل على

شيء فهو على أن الحرب رياضة ومفخرة تسعد بها النفس وتفاخر ، وتزهو وتغني وتنشد وتسجل وتعزف بما لا ينطق به إلا الاحساس لا الكلام ولا المقال . نقرأ هذا الوصف شعرا فنعرف إلى أي مدى كانت هذه الحرب وكيف كان الجيش المصري الباسل يقاتل أعداءه ويستهين بهم ويبعث بحمم فيصبها صبا وكفى أن نقول إن من غضب الله عليه وصاحبه الشيطان وخدعه فهو الذي يخرج على السلطان فيقع في مخالب الجيش المصري .

إن هذا الوصف الخالد والقصيدة الفريدة التي وصفت هذه الموقعة تثير الاعجاب وتدعو للقتال ، وتحبب للنفوس الحرب والنزال ، ويفخر كل قارىء لها بأنه مصري ويود أن يكون مصريا إن لم يكن .

ان قصيدة البارودي الشاعر الفحل والقائد القدير تظهر بأجلى بيان أنه إنما يصف الجيش المصري وهو يشعر في قرارة نفسه بما يوحي اليه بهذا الوصف الحماسي البديع ، فترى فيه البارودي بلغ به الفخر الذروة والاعتزاز بالجيش الدرجة القصوى فهذا وصف خالد يباهي به الجندي المصري الجيل بعد الجيل ويحفظه النشء لأنه سجل ما أشرفه من سجل . وانا لنقتطف من القصيدة ما يأتي :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربى بجران
لاتستبين العين فى ظلمـــــائه إلا اشتعال أسنة المرّان
تسرى به مابين لجة فتنـة تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مربأة وكل ثنيـــــة تهدار سامرة وعزف قيان
تستنّ عادية ، ويصهل أجرد وتصيح أجراس ، ويهتف عانى
قوم أبى الشيطان إلا خسرهم فتسللوا من طاعة السلطان
ملأوا الفضاء ، فما يبين لناظر غير التماع البيض والخرصان
فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانها لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر ، وارتمت عيناى بين ربى وبين مجان
فإذا الجبال أسنة ، وإذا الوهـــــاد أعنة ، والماء أحمر قانى
فتوجست فرط الركاب ولم تكن لتهاب ، فامتنعت على الأرسان
فزعت فرجعت الحنين وإنما تحنانها شجن من الأشجان
ذكرت مواردها بمصر ، وأين من ماء بمصر منازل الرومان

الفصل الثاني عشر

فصـــل الختام

عاد جيش ابراهيم إلى مصر ، فوزعه محمد على على أنحاء الوجه البحرى للاشتغال بزراعة القطن ولخفارة هذه الزراعة لأن الأهالى لم يكونوا يستسيغون هذا النبت الجديد ، فكانوا يقتلعون بالليل البذور التى زرعوها بالنهار .

فشاء محمد على أن يستفيد من الجيش المصرى فى مشروعات السلم ، لتحقيق أمجاد الوطن الاقتصادية ، كما أفاد فى تحقيق مشروعات الحرب ، وتحقيق الأمجاد العسكرية .

وكان محمد على قد استخدم ١٥٠٠ فلاح فرنساوى لتعليم المصريين زراعة القطن ، فوزعهم على المديريات ، وعين كل واحد من أولاده وأحفاده لرقابة مديرية ، فكان على ابرهيم

ان يرقب المنوفية ، كما أن محمد على خص نفسه بالقليوبية .

وكان لابرهيم مزارع خاصة يعنى بها كل العناية لينفق من دخلها على نفسه وعلى بيته ، وكان يحب الزرع والنبات والشجر والغابات حبا جما ، وكان يردد دائما الكلمة المشهورة : « إذا طلبت فى مصر الذهب ، فاكشف عن أرضها الغطاء تجده » .

وفى سنة ١٨٤٦ انحرفت صحة ابرهيم فسافر إلى أوربا للاستشفاء ، وعند ما وصل نبأ رحلته إلى الملوك والأمراء وجهوا اليه الدعوات ، وتلقى دعوة الملكة فيكتوريا لزيارة انجلترا ، وهو فى توسكانا فى طريقه إلى فرنسا .

وكان استقباله فى توسكانا من أحفل الاستقبالات ، ولما وصل إلى باريس كانت حفاوة فرنسا به لا يحيط بها وصف ، فاستعرض ثلاثين ألف جندى فى ميدان شان دى مارس ، وفى ركابه كبار رجال الدولة وثمانية من أمراء البيت المالك وست من الأميرات ، وكان ذلك اليوم (٢١ مايو سنة ١٨٤٦) يوما مشهودا فى عاصمة فرنسا ، قيل فى وصفه ان فرنسا لم تشهد مثله بعد نابليون الأول .

وفى أثناء زيارته لفرنسا دعى لزيارة ميدان التمرينات العسكرية فى سان نامور، فذهب إلى ذلك الميدان بمركبة ملكية ومعه الدوق دى نمور والبرنس دى جوانفيل، وقدم اليه جواد ليمتطيه، فاذا به الجواد الذى ركبه فى معركة «نصيبين» وكان محمد على قد أهداه فى سنة ١٨٤١ إلى ملك فرنسا مع تسعة جياد أخرى عربية أصيلة.

وقال الذين وصفوا ذلك اليوم ان ابرهيم نظر إلى الجواد فأحس الحاضرون أن أعصابه ترتعد وأن الدمعة حائرة فى عينيه، ولكنه وثب وثبة الأسد إلى ظهر ذلك الجواد الذى كان رفيقه فى معركة نصيبين المظفرة.

وأهدت اليه حكومة فرنسا وسام «اللجيون دونور».

وزار ابرهيم بعد ذلك لندن عاصمة الانجليز اجابة لدعوة الملكة فيكتوريا، فكانت الحفاوة به تفوق حد الوصف، وازدحمت الجماهير على جانبى الطريق لرؤية بطل نصيبين وعرض أمامه هنالك قسم من الأسطول والجيش، وطاف ببعض بلاد اسكتلندا.

ولما قرر العودة إلى مصر ، عرج في طريقه على بلاد البرتغال ، حيث زار الملك والملكة ولقى منهما كل حفاوة وترحيب وتقدير ، وأهدى اليه الملك وسام البرج والسيف.

ثم عاد إلى مصر ، وكان محمد على قد اشتد به المرض فذهب للسياحة فى أوربا سنة ١٨٤٨ وتولى ابرهيم الحكم بموافقة الباب العالى ، ولكنه لم يفتأ أن توفى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ — توفى البطل الفاتح الذى قاد جيش مصر من نصر إلى نصر ، ورفع علمها عاليا فى كل مكان ، من كريد إلى البلقان ، ومن السودان إلى اليمن ونجد والحجاز وسوريا والأناضول .

وإذا كان ابرهيم قد اشتهر بصلابته فى القتال ، فانه قد اشتهر أيضا بصلابته فى العدل بين الناس ، حتى بات إلى اليوم مضرب المثل بعدله فى بلاد الشام التى حكمها ثمانى سنين فلم يكن الحاكم العسكرى فقط ، بل كان العسكرى المصلح الذى خلد آثاره هناك إلى اليوم ، ولا يزال الناس يتغنون بعدله ويضربون على ذلك الأمثال .

ولقد نشط ابرهيم بالشام فى السعى لقطع دابر الرشوة فى الأعمال المختصة بتسيير العدالة ، وقد شهد بذلك جميع قناصل الانجليز فى سنة ١٨٣٦ ، وهم فى ذلك الوقت أعداء ابرهيم . وقد كان أكبر خصوم ابرهيم من بين أولئك القناصل يسلم على الأقل بأن دائرة الرشوة قد ضاقت كثيرا عن ذى قبل :

ولقد كان من نتائج حكم ابرهيم فى بلاد الشام ، تأمين الناس من الأعمال العرفية وحماية أملاكهم ووجود نوع جديد من الحرية الدينية وحرية الحياة والاستمتاع بالمسليات والملاهى ، وتوزيع الضرائب توزيعا عادلا ، وبالجملة كانت الحالة فى سوريا أقرب إلى الحرية التى كان يمكن التمتع بها تحت أية حكومة حرة ، والادارة قد تحسنت من عدة وجوه إلى أبعد من المدى الذى كان الانسان يتوقعه .

وبجانب هذا كله عمل ابرهيم على تنشيط حركة التجارة فى ديار الشام ، فانتشرت انتشارا هائلا ، وفى عهده أمكن حمل البدو الرحل على انشاء صلات تجارة ثابتة مع بقيـــة

السكان وزحزحة خط الحدود الذى يفصل الصحراء ومنطقة العمران شرقا ، واقناع البدو أنفسهم بالاهتمام بالزراعة ، وفى هذا الصدد يقول «وبرى» : «إذا استمر العمل بهذا النظام فانه كفيل بأن يؤدى إلى أجزل الفوائد ، وبذا يتم ربط الشعبين السورى والعربى فى غاية سلمية واحدة» . بل انه أمكن حمل رعاة البدو على أن يقضوا جانبا من العام فى زراعة سهل أدنة الغنى المترامى الأطراف ، وهو السهل الذى كان يقطنه خليط من الأناضوليين والتركمان والأكراد والذى كانت الفوضى منتشرة فى أنحائه .

وكان ابرهيم شديد التعلق بفكرة إحياء الخلافة العربية ، وكان يسرف فى تشجيع العنصر العربى ، حتى لقد ذكر الكاتب الفرنسى «بوالى كومب» إن خطة ابرهيم هذه قد أدت إلى متاعب فى الأدارة العسكرية لغيرة الأتراك .

وكان ابرهيم بطبعه شغوفا بالمعيشة فى وسط جنوده العرب ، مع رفع الكلفة بينهم وبينه ، وكثيرا ما كان يقوم بالألعاب الرياضية معهم ، ويتغنى بالعنصر الذى نشأوا من سلالته ،

وقد كان يصرح بقوله إنه شب وترعرع فى مصر فلا يعرف له وطنا سواها ، فهو مصرى عربى .

ولم يفتأ ابرهيم يتحمس للجامعة العربية ويأخذ بمناصرتها ، ولم يقتصر على إبداء ميوله نحو تلك الجامعة سرا وفى الخفاء ، بل كان يتكلم علنا عن إنعاش القومية العربية والسعى إلى نظم كل من يتكلمون بلغة الضاد فى رباط واحد ، وفتح أبواب وظائف الدولة على مصاريعها أمام أبناء العرب وتقليدهم أسمى المناصب فى الجيش .

ولما تألبت الدول ، وترتب على ذلك أن تنجلى الجيوش المصرية عن سوريا ، رأى ابرهيم ورأى والده معه أن تتلقى العلوم فى المدارس المصرية العالية بالمجان طائفة من أبناء تلك البلاد ، وأن يكتب على الشهادات التى ينالونها ما يشعر بذلك لتكون دليلا على عطف مصر وإخائها ، وظل الحال على ذلك إلى أن كان الاحتلال الانجليزى فقطع هذه الصلة الروحية ، بعد أن قطعت الدول الصلة المادية باقامة الحدود التى محاها ابرهيم بسيفه . ومن هذا يظهر أن سياسة ابرهيم ووالده العظيم كانت سياسة عربية تضم أبناء العروبة وتجعل مصر مركزها الرئيسى ، إن لم تنجح فى توحيدها فلا أقل من أن تكون أما لها وان

وان الفكرة التى تنبت بهذه القوة ، وبتفكير هذا البطل القوى ، وبهذه الروح القوية التى أشاعها فى الشعوب العربية ، لايمكن أن تذبل وتموت ، وهاهى الأعوام قد كرّت طويلة مديدة، والبذرة كامنة تحت ركام من الأحداث والسنين ، ثم ما تلبث أن تبرز فكرة الجامعة العربية المتينة ، فى رعاية حفيد ابرهيم ، الفاروق المعظم ، وتصير حقيقة واقعة ، تتأكد وتتوطد وتؤتى ثمارها ، وتحسب لها الدول كل حساب .

وسلام على الفاروق العظيم ، وسلام على ابرهيم .

وهكذا نرى صورة بارزة من نور أرسلها ابرهيم العظيم ليتلقاها الفاروق العظيم ، فهو أقدر من يقدر الرجال ، ويحقق الآمال ، فهذا عهد الثورة وعصر القوة وعصر التحرير ، وعصر القتال والنزال ، وعصر النصر والاستقلال ، وعصر القومية، وعصر العربية، وعصر العروبة والاتحاد ، وقيادة الشعوب إلى المكان الذى يجب أن تتبوأه متآخين متضافرين . وكفى أن يقال إن عهد الفاروق عهد جمع ملوك العروبة وشعوب العروبة فى مؤتمرات قررت فيها النهوض بشعوبهم والوقوف فى وجوه الغاصبين .

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم

المراجـــــع

الأمير عمر طوسون —	الجيش المصرى البرّى والبحرى (صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمـــد على)
عبد الرحمن الرافعى بك —	عصر محمد على
كريم ثابت بك —	محمد على
داود بركات —	البطل الفاتح ابرهيم باشا
سليمان أبو عز الدين —	ابراهيم باشا فى سوريا
مؤرخ مجهول —	حروب ابراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول
ميخائيل الدمشقى —	تاريخ حوادث الشام ولبنان (١١٩٧ — ١٢٥٧ هـ)
حبيب جاماتى —	ابرهيم فى الميدان
هنرى دودويل —	محمد على مؤسس مصر الحديثة (معرّب)
الدكتور محمـــد فؤاد شكرى وآخران —	بناء دولة ، مصر محمد على

الفهـــــرس


Bibliotheca Alexandrina
0399123